



دار السلام للنشر

دراسات نقدية



د . عبد الله محمد الغدامي

ثقافة الأسئلة

مقالات في
النقد والنظرية



0033354

Bibliotheca Alexandrina



دراسة نقدية

ثقافة الأسئلة

مقالات في
النقد والنظرية

د . عبد الله محمد الغداهي



دارسعاد الصباح

رقم الإيداع : ١٩٩٣/١٨١٢
I.S.B.N. 977—5344—59—X

الطبعة الثانية ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة ©
دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم
٢٦٧ دق
٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩ : تليفون
٧٠٩٥٨٣
٧٠٩٥٦٣ : فاكس
٥٠٦١٠٣٠

الإشراف الفني : حلمى التوفى



اللهم

إلى

مدية حرة

حيث يخفق القلب

فلا تحسب أن الغريب الذي نأى
ولكن من تنأى عن غريب*

والى

عبد الفتاح أبو مدين

حيث صدق الرجال ورجال الصدق

عبد الله

* قيس بن الملوّح :

تنوير وفاتحة

« وما زال في الدرب درب ..

لنمشي ونمشي

إلى أين تأخذني الأسئلة

أنا من هنا

أنا من هناك

سأرمي كثيرا من الورد قبل الوصول

إلى وردة في الجليل » .

محمود درويش

« لقد تقبل الأنثروبولوجيون أنواعا

من الثقافات حيث يأكل البشر

الكلاب والقروذ والضفادع والشعايين ،

ولذا يفترض ألا يُستغرب وجود

بلاد يسهم الأكاديميون فيها

بالكتابة الصحفية » .

أمبرتو إيكو

يقول إيكو هذا الكلام في مقدمة كتابه (رحلات في الحقيقة العليا -

Travels in Hyper Reality) ، وهي مقدمة كتبها خصيصا للطبعة

الأمريكية من هذا الكتاب . وفيها تحدث عن سؤال طرحه عليه صحفي أمريكي يستغرب على إيكو كيف استطاع أن يوفق بين صفته الأكاديمية بوصفه باحثا سيميولوجيا ومؤلفا وأستاذا ومع ذلك يمارس الكتابة للمصحف . والسؤال الأمريكي ينم عن طبقة ثقافية لها وجود في أمريكا حيث التخصصات ذات الحدود القاطعة .

ويرد أمبرتو إيكو على ذلك قائلا إن الأكاديميين الأوروبيين - والطلبان خاصة - لا يرون الكتابة الصحفية عملا طبيعيا فحسب ، بل إنهم يعتبرونه واجبا ، من حيث كونه مشاركة اجتماعية وثقافية يشعر المفكر بمسئولية خاصة نحوها ونحو ضرورة أدائه لها . ولذا فإنها عند الأوروبيين عادة من عادات الفعل الثقافي العام ، وليس في الأمرية غرابة . ويزيد إيكو على تعدد نشاطاته بأن يكتب الرواية . ولقد سخر من إنتاجه الروائي في هذه المقدمة ، ولكن رواياته - اليوم - تضرب الأسواق وشاشات السينما ومسلسلات الإذاعات في أوروبا وأمريكا . ولا غرابة .

ولا ريب أن عنت التخصص في أمريكا قد أصبح أمرا ملحوظا ، وأشار إليه بيرنشتاين في كتاب صدر عام ١٩٩٠ بعنوان (سياسة الشكل الشعري) نعم فيه على الثقافة الأمريكية المعاصرة تراجع مأساه بالخطاب العام ، وهذا غياب له خطره الفادح على المثقف وعلى

الجمهور ، ويرى بيرنشتاين أن الفن الشعري مؤهل للتصدي لهذا الدور الاجتماعي الثقافي ، والشعر مساحة خضراء قادرة على إعادة تأسيس المدى الجماهيري وإعادة بناء الخطاب .

إن كان هذا الغياب واقعا ومؤثرا في أمريكا فإننا هنا نعاني من غياب ثقافي أكبر وأفدح ، وإن رأى إيكو أن الأكاديمي الأوروبي لا يجد غضاضة في الانفتاح الاجتماعي ، بل يرى ذلك واجبا ومسئولية اجتماعية ، فإن الحاجة عندنا أبلغ ، وسوف يكون من واجب المثقف أن يكسر حواجز التخصص ، ويمد جسوره إلى جمهور الناس ليقدم المعرفة إليهم بخطاب عام يمكن إدراكه دون أن يتنازل الخطاب عن شروطه المعرفية والاصلاحية .

وهذا هو هدف هذه المقالات التي ظهرت متتابعة في جريدة الرياض (ملحق الخميس) ، ثم رأيت جمعها وإخراجها في كتاب ، مع الإبقاء على صيغتها الصحفية من حيث التخفيف من الهوامش ، والأخذ بأطراف القضايا مباشرة من دون إحالات لا يحتملها النشر الصحافي ، سوى استثناءات يسيرة اقتضاها المقام .

ولقد جاءت هذه المقالات استجابة لأسئلة تتوارد عليّ منذ صار مشروعني الثقافي مرتبطا بمنهجية نقدية واضحة المعالم ، وتقوم هذه المنهجية على (النقد الألسني) أو (النصوصية) معتمدا بذلك على ما يعرف بنقد

مابعد البنيوية ، وهو - عندي - نقد يأخذ من البنيوية ومن السيميولوجية ومن التشرّحية منظومة من المفهومات النظرية والإجرائية تدخل كلها تحت مظلة الوعي اللغوي بشروط النص وتجلياته التكوينية والدلالية .

وبذا فإن هذه المقالات هي بمثابة شروح وهوامش واستباعات على مجمل منهجيتي النقدية المتمثلة بكتابي (الخطيئة والتكفير) . وما جاء من بعده ، خاصة (تشرّيح النص) و (الكتابة ضد الكتابة) .

ومنذ صدور (الخطيئة والتكفير) عام ١٤٠٥ (١٩٨٥) وأنا في حال مواجهة مستمرة مع الأسئلة ، وجاءت كتاباتي الصحفية ومشاركاتي المنبرية استجابة وتفاعلا مع هذا المد الاستطلاعي والاستفهامي ، ونتج عن ذلك كتابي (الموقف من الحداثة ومسائل أخرى) الذي يتضمن بعض تلك المشاركات ، ولقد صدر عام ١٤٠٧ (١٩٨٧) وجاءت بعده سلسلة من المقالات والمشاركات منها مجموعة مقالات في جريدة عكاظ بعنوان (أسئلة الكلمة) بلغت بضع عشرة مقالة ، ومجموعة من المقالات على صورة حوار مع الأستاذ أحمد الشيباني في ملحق الأربعاء بجريدة (المدينة) بعنوان : نحن نقد نصوصي (ألسني) . ولم يتيسر جمع هذه المشاركات في كتاب بعد . ولقد ضاع بعضها رغم قرب العهد بها . وهناك غيرها مقالات ومشاركات في جريدة (اليوم) ومجلة (الشرق) و (البهامة) وجريدة (الرياض) ، لا تنتظم في عنوان واحد وإن كانت كلها تدور حول المنهج ذاته ، وتتجاوز مع أسئلة متماثلة .

أما هذه المقالات التي تشكل هذا الكتاب فإنها سلسلة تتابعت بانتظام

على مدى عام ، ونشرت جميعها في الملحق الثقافي لجريدة الرياض أيام الخميس ، وكان باعثها ملاحظة عابرة وردت على لسان أحد الزملاء . ولقد وجدت نفسي وقتها في مواجهة مع إلحاح عدد من الأصدقاء الذين رغبوا إليّ بأن أكتب ما يوضح ويبين مقاصد المنهج ومراميّه كمحاولة لتوظيف الملاحظة توظيفا إيجابيا نافعا ، ولقد فعلت ، ولعلي حققت لهؤلاء الأصدقاء بعض مراميهم .

هذا جانب من الحكاية ، ولكن الأمر لا يقف عند حدود السؤال وجواب السؤال ، بل إنه يمس بعض المسائل الجوهرية والأولية ، ومن ذلك علاقتنا بالمعرفة من حيث أساسها ومصدرها ، وهو مصدر تغلب عليه في عصرنا هذا صفة (الغيرية) ، فهي معرفة تصدر عن ثقافات أخرى ذات سياقات مختلفة . ولقد جرب المفكرون العرب وجوها من التعامل مع هذه المصادر . مثلما أن لسلفنا الصالح وجوها ماثلة حينما تعاملوا مع اليونان وفلسفاتهم . ولا ريب أن الأسئلة عن مشروعية الاستفادة كانت حاضرة في أذهانهم حضورا ذاتيا أو بسبب مواجهة استنكارية من معارضيتهم . وبما أن هذا المشكل مازال يتكرر عند عامة الناس ولدى بعض منتسبي الثقافة بحيث يربطون بين الفكرة ومصدرها ربطا متعسفا لا فسحة فيه ، فإني هنا أعرض ماجاء على قلم شيخنا حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، حيث ناقش مشكل الذين يرفضون المعرفة لمجرد أنها صادرة من مصدر يختلفون معه . وسمى ذلك (آفة الراد) ، فقال في ذلك :

« أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة : إذ ظنت طائفة

من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونا في كتبهم (=
الفلاسفة) ومزوجا بباطلهم ينبغي أن يهجر ولا يذكر .
بل ينكر على « كل » من يذكره إذ لم يسمعه أولا إلا منهم ،
فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل
(.) . وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق
بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه ، حيث
قال : لا تعرف الحق بالرجال « بل » اعرف الحق تعرف
أهله .

والعارف العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس
القول : فإن كان حقا قبله . سواء كان قائله مبطلا أو
محقا . بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل
الضلال ، عالما بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على
الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب وانتزع الإبريز
الخالص من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقا ببصيرته
وإنما يُزجر عن معاملة القلاب القروي دون الصيرفي
البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق ، دون السباح
الحاذق . ويصَدَّ عن مس الحية الصبي دون المعزم
البارع . (.)

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر » .

ثم يختتم أبو حامد كلمته عن هذه الآفة المعرفية قائلا عنها :

« وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فإذا نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردّوه ، وإن كان حقا . فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق . وهو غاية الضلال ! . هذه آفة الرد » . - المنقذ من الضلال ص ١١٠ - ١١٤ .

وإن كان أبو حامد قد فَنَدَ القول عن هذه الفئة التي ترفض المعرفة الإنسانية ، وأغنانا بذلك عن إعمال الفكر في مجابتهها بالحقيقة وفي كشف صنعتها السالبة ، فإننا نلّمح هنا إلى أن الممارسين للرفض الثقافي هم غالبا قوم لم يمارسوا الفعل المعرفي ممارسة عملية ، ولم يتعاملوا مع المناهج الإجرائية ولا مع النظريات المعرفية . وهم لهذا يصدرون عن وهم وعن ظن يهيجسون به دون أن يختبروه .

ولعلمهم وجدوا ذلك أيسر السبل لإعفاء أنفسهم من عنت البحث والريادة ، فقالوا بالرفض عجزا عن بلوغ المرام من جهة ، وإنقاذا لماء الوجه من جهة ثانية كى يغطوا على قصورهم . على أنهم لو جربوا هذه المعارف والمناهج مثلما جربناها ، ولو خبروها مثلما خبرناها ، لما قالوا فيها ما قالوا ، ولا وصفوها بصفات لا تصدق عليها ولا تصح فيها ، وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامي الغمر - كما يقول أبو حامد - ولكن الرافضين عجزوا عن هذا التميز ، ومن هنا فقد اكتفوا بالبحث عن عيوب الفاعلين ، وكيفيههم منا قول المتنبي :

**كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ويكره الله ماتاتون والكرم**

هذا - إذا - ما وراء الملاحظات التعسفية ضد المنهجية النقدية وإنجازاتها النظرية والتطبيقية ، ولقد جاءت هذه المقالات لإيضاح جوانب من مسائل هذا النقد ، بَعَثَ ذلك وتسببت فيه ملاحظة عابرة ، ولكنها ملاحظة أفادت من حيث تدري أو لا تدري . . والمهم هو الاستكشاف والاستبصار قدر الممكن والمستطاع .

وأود - قبل الختام - تسجيل تقديري الخاص لمجموعة من النقاد أصحاب التوجه المعرفي المشترك وهم الاخوة عابد خزندار ، وسعيد السريحي ، والدكتور عالي القرشي ، والدكتور عثمان الصبني ، الذين كان لهم حضور فعال في كل مقالة كتبتها ، وكان لحضورهم هذا أثر دافع ووجه مستقبل . كما أشكر الدكتور سعد البازعي الذي طرح ملاحظته على عجل ، وتسبب عليّ بكتابة هذه المقالات .

وأكرر شكرى للصديق الدكتور عثمان الصبني على توليه تصحيح - تجارب - الكتاب ، وقد لاتفى كلمات الشكر حق الدكتور عثمان ، ولكن ساحة نفسه تكمل نقص كلماتي ، ولاريب .

وأشكر النادي الأدبي الثقافي بجدة وعلى رأسه أستاذي الجليل عبدالفتاح أبو مدين على تكّرمه بنشر الكتاب وتعميمه .
والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل .

عبدالله محمد الغدامي

الرياض ١٤١٢/٢/٧ هـ - ١٩٩١/٨/١٧

من ثقافت الحزيمه إلى ثقافت الحاضر

(١)

يقول جدى بن ربيعة العامري :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا
عصافير من هذا الأنام المسحر
نحل بلادًا كلها حُلّ قبلنا
ونرجو الفلاح بعد عاد وحفير

وأقول أنا : أرشدك الله أيها العامري الجليل ، فإن كنت قد حللت
بلادًا حلها قبلك طوائف من عاد ومن حَمِير فماذا ترانا نحن نفعل من
بعدكم ، والخافر منا يقع على أهرامات من الخوافر . . إنه الطريق نسير
عليه مثلما ساروا ، ونرجو الفلاح مثلما كانوا يرجون ، وهامما بيتان
جاهليان يتكلمان بلغة القرن العشرين ، وينفشان لوعة إنسان هذا
العصر ، فكأنهما قد كُتبا اليوم ، ولقد يصدق القائلون إذ قالوا : (ماترك
الأول للأخر شيئا) ، تماما مثلما يصدق قول من قال : (ماترك الآخر
للأول شيئا) ذاك لأن الأوائل قد بنوا بعقولهم حضارة زمنهم وتركوها لنا
أثرا نتوارثه عنهم ، ولم نقنع نحن بمجرد استلام صكوك الميراث ، بل

رحنا نفوص في آثارهم بحثنا وتمحيصا ودرسا ، ولم نترك لهم من أثر إلا وداخلناه ، فهم لم يدعوا بابا من أبواب المعرفة إلا وطرقوه ، ونحن لم نترك هذه الأبواب على غبارها ، ولكننا ترددنا فيها دخولا وخروجا ، ومن هنا فإن الأول والآخر يشتركان معا في (الشيء) ولا يرضى أحد منهما أن يترك هذه الشراكة او يتنازل عنها لأخيه .

وهكذا هي (العلوم الإنسانية) ماقام فيها من (نظرية) اليوم إلا وقد كانت بمثابة البلاد التي حلت بها عاد وحير من قبل ، فالأرض والنظرية عالمان تردد عليهما الإنسان وسعى فيهما عمرانا (أو تهديما) . ولن نجد من فارق بين الأول والآخر في هذه المسألة إلا ماتقدهم الخبرة والإفادة من جهود السابقين حيث تسهم الجهود المتوالية في إنضاج الفكرة وإيصالها إلى حدود الإتقان والدقة ، وتنتهي (النظرية) حينئذ على يد آخر رجل في السلسلة ، تنتهي وكأنها ثمرة الزيتون التي تعاقبت عليها جهود الأجيال غرسا ورعاية ، وتمضي الأجيال ليأتي من يخلفها على الغرسة الناضجة ويقطف الثمرة حينئذ . والفارق هنا بين شجرة الزيتون والنظرية هو أن جهود السالفين على (النظرية) لا تكون على نفس الدرجة من الوضوح كما هي جهودهم في إنتاج الشجرة ، ذاك لأن (النظرية) تتأسس عادة على (التجميع) و (التركيب) من أشبات متفرقة ومتباينة وقد يكون التباين بين مصادر أجزائها شديدا إلى درجة التناقض فيما بينها ، ولا يقوى على إدراك العلاقة بين النظرية / الثمرة وجهود السالفين إلا عقل يتمتع بموهبة التركيب بحيث يستطيع رؤية (الوحدة) في وسط ما يبدو للعين المجردة أشباتا متباينة . وكل نظرية حديثة ، في العلوم الإنسانية خاصة ، لا بد أن قدح بها عقل أو عقول سابقة ولامس جانبا منها أو عددا من الجوانب ،

ولكنها ظلت إشارات معلقة فيأتي من يأتي بعد ذلك ويلملم أطراف القول منها والنظر بحالاتها ويصوغها قولاً واحداً . فإذا كان هذا القول جامعاً مانعاً فقد صار (نظرية) ومصطلحاً بعد أن كان من قبل مجرد هاجس أو ظنٍّ أو مجرد فكرة عابرة وإشارة عائمة .

ولو تأملنا في الفلسفة الحديثة بكل مدارسها لوجدنا أفلاطون وأرسطو والسفسطائيين مخبوتين في ثنايا كل فكرة فلسفية معاصرة . ولا يستطيع التطور أو التحديث إلغاء الجينات الوراثية من دماء الفكر المعاصر . وكذا الحال في علم النفس ، ولن يبعد عنا مفهوم (التطهير) الأرسطي وعلاقة هذا المفهوم بنظرية (العلاج بالشعر) وهي الفكرة التي يطرحها اليوم بعض المحللين النفسانيين في الغرب .

وهل يستطيع أحد منا أن ينسى دعوى طه حسين حول اختلاق الشعر الجاهلي وصلة هذه الدعوى بما قاله ابن سلام الجمحي عن رواة الشعر وكذبهم في الرواية ، ولقد أوشكت هذه الدعوى أن تصبح نظرية حديثة عربياً واستشراقياً (كما عند مارجليوث) ولو صارت لكانت صياغة حديثة لإشارة قديمة ، وهذه هي سلسلة نَسَب النظرية . ولكن براهين النقض فيها كانت أقوى وأكبر من افتراضات الإثبات ، فانتهدت الدعوى إلى مجرد شك عابر ترجمه صاحبه إلى مشروع بناء أحل اليقين محل الشك والجمال محل الفتنة .

كما أن مستقبل الدراسات الانسانية يخبيء لنا نظرية نصوصية سيظفر بها كاتب ما ، ويصوغها بلسان عربي مبين ، وستكون زيتونة مباركة لا شرقية ولا غربية ، تستلهم بركتها من الشجرة القرآنية ونورها الخالد ، وسوف يكون الجرجاني (عبدالقاهر) هو صوتيم النظرية ولباها .

على أن الإمام عبدالقاهر موجود في قلب كل فكرة نصوصية ،
 وجوده هذا واضح وضوح الشمس . ولست أرى أى معضلة قط في
 إدراك العلاقة مابين الجرجاني والمفاهيم النصوصية الحديثة سواء في
 مسألة المعنى أم في مفهوم الإشارات ونظرية الاختلاف ودلالات الحضور
 والغياب ، ولقد أوضحت ذلك في دراسة منشورة بعنوان (من المشكلة
 إلى الاختلاف - مشكلة المعنى في النص الأدبي) وهي دراسة منصبة على
 (بلاغيات الجرجاني) وبين يدي الآن دراسة أخرى تكمل تلك وتتضافر
 معها لتكوين رؤية شاملة لنصوصية الجرجاني . وإني لأجد نفسي في بلاد
 حلها وسكن فيها عبدالقاهر في كل مرة أقرأ فيها كتابات النصوصيين
 الغربيين ، ولا يقتلني شيء مثل عجبني من رجال يعجزون عن ملامسة
 هذه العلاقة أو معيبتها وهم - في ظني - أناس لا يخرجون عن نوعين :
 نوع لا يعرف فكر الجرجاني ، ولذا لا يقوى على القياس عليه ، ونوع
 آخر لا يتمتع بالنظرة الشمولية التي ترتفع إلى إدراك الحقائق الكلية
 ويكون لديها موهبة النظر التركيبي . وهذا يذكرني بنظرية كولردج حول
 الخيال والوهم والفارق بينهما ، حيث يكون الخيال تركيبيا يبني العناصر
 بناء عضويا وحيويا بينما الوهم يقوم على مجرد تجميع العناصر وللمتها
 ويقصر دون إدراك العلاقات الدقيقة فيما بينها ، ولا ريب - إذا - أن
 اكتشاف الصلة الجرجانية مع النصوصيين أمر يحتاج إلى خيال تركيبي مثل
 ذلك الموصوف عند كولردج . ولن أدع الفرصة تفوتني في أن أنه هنا إلى
 أن شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية قد سبق كولردج في الإشارة إلى درجات
 التصور الذهني ، وزاد عليه في تنويع الحالات وتدرجها من الجزء إلى
 الكل إلى الشمول . وهذه مراحل ثلاث لا بد من الترقى فيها من أجل

الوصول إلى استكشاف (الوحدة) في (الشتات) وهذا هو عقل البناء .
أما عقل الهدم فإنه لن يرى في الوحدة إلا شتاتاً ، وسيعجز عن تصور
العلاقات الدقيقة فيما بين الأشياء المتباينة ، أى أنه لن يرى (الائتلاف في
الاختلاف) كما يقول شيخنا عبد القاهر الجرجاني .

ومادامت القضية على هذه الحال من التشابك بحيث يكون الجرجاني
ورولان بارت يتكلمان في مفهوم واحد - على الرغم من كل ما بينهما من
اختلاف - فإننا لن نعجز أبداً عن فهم مقولة إليوت التي جاءتني عن طريق
الدكتور محمد مندور وهي قول إليوت : (إنه لم يؤثر في الآداب القديمة
شيء قدر ما أثرت الآداب الحديثة) والعكس صحيح طبعاً وتسليماً .

فالأول والآخر لم يترك أحدهما لأحدهما شيئاً . ونحن أمام شجرة عظيمة
يتواءم خشبها مع تراكبها مع أعوادها مع أوراقها لإنجاز ثمرة واحدة هي
إفراز لهذه الشجرة ، ثم تعود هذه الثمرة لتفرز من نواها شجرة تسير
مسار الأم - وكلنا بعد ذلك (عصافير من هذه الأنعام المسجّر) كما يقول
العامري ، وكل اختلاف يفضي ويؤول إلى ائتلاف . وهذه حقيقة
الوجود كما صنعه خالقه جل شأنه (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن
لا تفقهون تسبيحهم) . وكل ذلك من الله (إن الله) ، وكله إلى الله (وإنا
إليه راجعون) . إنها حكمة بالغة تجعلنا كلنا (نحل بلادا كلها حل
قبلنا) . ونجد رولان بارت يقول بعد جهد جهيد ماسبق أن قاله
أبو حامد الغزالي حول مسألة (اعتبارية اللغة) . ولقد أشرت إلى ذلك
في الخطيئة والتكفير ص ٤٥ وما بعدها .

(٢)

هذا مدخل أدخلني إليه قسرا الدكتور سعد البازعي في لقاء مفاجيء يوم الخميس الماضي (١٧/٣/١٤٠٩ هـ) على صفحات ثقافة اليوم في جريدة الرياض ، وأنا أقول قسرا لأنني كنت قد عقدت العزم - بعد الاتكال على الله - في أن أدخل نفسي في عالم الذهب (عالم السكوت والصمت وراحة الاستشعار عن بعد) من أجل إعادة قراءة الذات والمحيط . ولم أكن أعلم أسباب التصاق كلمة قالها تشومسكي هي : (أن للعقل قدرات غنية جدا ، لكن بعض أنواع البيئات الحافزة ضرورية كي تقوم هذه القدرات بوظائفها) وهي جملة وردت في عمل ترجمه الدكتور حمزة المزيبي . ولقد التصقت هذه الجملة بين محاجر عيني وفي تلايف هواجسي مع مطلع صباح ذلك الخميس ، وأعجزني إدراك غايتها مني حتى اتصلت (كما يقول إخواننا في تونس) بتلك المقابلة ، وعندها أدركت أنني أمام موعد مقدر في مواجهة حافز أزعج كل رغباتي بالذهب وصرفني من حكمة الصمت إلى وعشاء الكلام . هذا ما فعله البازعي وحسابه على الله ، وهأنذا أكتب ما في دمي ولا أشطب ، ولقد جرّ القلم القلم إلى سلسلة من المقالات هذه أولاها ولا يعلم إلا الله عن آخرها ، وسأتكلم عن قضايا عدة لمسها الدكتور ففجرها في نفسي ومنها المصطلح ومنها علاقات الثقافات فيما بينها ، ومنها حكمنا على التاريخ أو حكم التاريخ علينا ، والله المستعان .

الرياض

١٤٠٩/٣/٢٤ هـ

من ثقافة الحزبية إلى ثقافة الحائز

٢

صناعة النظرية

مازلت أشعر أن مبادئه من كلام في المقالة السالفة لم يعبر عن كل ما أريد قوله عن حالات (صناعة النظرية) ولذا فإنني سأواصل الحديث اليوم في الموضوع نفسه . وكل ذلك من أجل تأسيس مدخل أستند عليه فيما سأطرحه من أفكار في المقالات المتتالية بعد ذلك .

وسوف أقف اليوم على شهادات بعض المفكرين الذين جربوا ومارسوا العمل في النظريات وحولها ، وهؤلاء هم الشهود الحقيقيون الذين يمكننا أن نأخذ بكلامهم ، وأبدأ بريتشارد رورتي الذي ينقل عنه جوناثان كولر قوله عن النظرية إنها (مزيج من علوم مختلفة يتم عصرها في جنس واحد) والعلوم التي يشير إليها رورتي هي الأدب وتاريخ الفكر والفلسفة (ويخص الأخلاقية بالتحديد) وعلوم الأصول والفكر الاجتماعي ، وهذه عنده هي المصادر الأولية لصناعة النظرية التي صارت تتسم بالشمول - كما يقول كولر - ومن ثم فإن ما يصدر عن النظرية من أعمال يرتبط مع فعاليات مختلفة ومع كتابات متنوعة مثل كتابات ليفي شتراوس وترابطها مع الأنثروبولوجيا ، وارتباط كتابات لاكان بالتحليل النفسي .

ولذا فقد أصبحت النظرية (جنسا) كتابيا متميزا بسبب الطريقة التي يحدث بها توظيف أعمالها ، من حيث إنها دأبت على استثمار المعطيات العلمية خارج حدود نشأة تلك المعطيات ، وبالتالي فإن مفهومات من علم النفس ومن علوم الاجتماع ومن علوم الأصول تتحول عن حقولها الأولى ويتم توظيفها توظيفا جديدا (ومختلفا) في الدرس الأدبي ، وتصبح حينئذ نظرية مركبة متماسكة - وإن كانت مصادرها متباينة - ومن هذا الفصل المتعمد والواعي جاء استقلال النظرية وصار علم الأدب هو المستفيد من تلك العلوم دون أن يذوب فيها ، ويقدم كولر ثلاثة أسباب تبرر كون هذا (المزج) يحدث في علم الأدب دون سواه ، ويهمني هنا نقل اثنين منها وأحيل القاريء الراغب في التوسع إلى (الخطيئة والتكفير) ص ٥٨ وما بعدها .

وأول الأسباب هو أن النظريات العلمية المختلفة تجدد - دائما - مجالا فعالا لها في الأدب ، لأن موضوع الأدب هو التجربة الإنسانية من حيث إنه يفصح عنها وينظمها ويفسرها ، ولأن الأدب يدخل في تحليل العلاقة بين الإنسان والإنسان ، ويبرز أخفى بواطن النفس البشرية ، كما أنه يبرز انعكاسات الأحوال المادية على المعاناة الإنسانية ، فلا ريب أن أية نظرية تمس هذه القضايا سيكون لها مجال رحب لدى النقاد والمنظرين ، وشمولية الأدب تسمح لأي نظرية لتدخل كواحدة من نظريات الأدب .

هذا سبب ، والآخر هو أن لنقاد الأدب مقدرة خاصة على قبول التطورات الجديدة التي تطرأ على العلوم الأخرى ، وليس لديهم التزام يقيدهم كالتزام المختصين في تلك الحقول الذين يترددون في قبول ما يعارض المؤلفون عندهم ، وعلى الرغم من وجود التزام خاص بالنقاد

يمنعهم من قبول بعض النظريات الغريبة إلا أنهم دائما على استعداد لتقبل أى تحدٍّ يهزّ المعارف عليه في علوم النفس والاجتماع والفلسفة والانثروبولوجيا . وهذا هو ما يجعل النظرية أو نظرية الأدب مضمارا حيا لمناقشة حية .

هذا ما يقوله رورتي وكولر عن (النظرية) وعن النقد الأدبي ، والنظر المتأمل يقتضي منا قبول ذلك ، فأنت ترى النقد الأدبي ليس سوى خلاصات نظرية لعلوم شتى مثل النحو وعلم اللغة والعروض والصوتيات والبلاغة وكذلك علوم النفس والاجتماع والتاريخ ، وكذا هي الحال مع كل علم أصولي ، ذاك لأن العلوم التي تستند على (الكليات الشمولية) لا يتحقق لها الكل الشمولي إلا من خلال توظيف المفاهيم التي تتسم بهذه السمات ، ويتم التقاطها وتجميعها من مصادر ذات تنوع واسع ، ولننظر في (أصول الفقه) كمثال على ما نقول ، وسنجد أنه يعتمد على قواعد كلية تم تأليفها من علوم مختلفة هي النحو والبلاغة والمنطق ، وهذه العلوم الثلاثة هي ما يشكل أصول الفقه ومن دون هذه المعارف لن يكون هناك أصول للفقه . ومع هذا التشابك فإن أصول الفقه ظل علما مستقلا وجنسا متميزا عن تلك العلوم التي شكلت مصادره . وقس على ذلك علم العروض الذي يتكون من الرياضيات والموسيقى وعلم الأصوات .

ولقد نجد محركا أساسيا يحرك العلوم النظرية ويدفعها إلى شمولية علمية متفتحة ، وذلك مثل مبحث (الإعجاز) في الثقافة العربية حيث تحول الوقوف على الإعجاز القرآني إلى بحث نظري شامل تولدت عنه البلاغة العربية مستعينة بالمنطق الأرسطي في بعض مراحل نموها . وقد

يُحَسِّنُ بنا أن نقف مع الدكتور حمادي صمود (التفكير البلاغي عند العرب ٩٠ وما بعدها) لنعرف بداية انبثاق النظرية البلاغية حيث تقرأ سبب تأليف أبي عبيدة لكتابه (مجاز القرآن) : (فقد سأل بعض الكتاب أبا عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع عن قوله تعالى « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » فرد عليه أبو عبيدة بأن الله كلمهم على قدر كلامهم وذكر بيت امريء القيس :

أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كانياب أغوال

ومن ثم عزم على أن يضع كتابا في القرآن لمثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه) .

وحينما يقول لمثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه فإن هذا يعني في ثقافتنا حركة تحول مبحث الإعجاز إلى مبحث في المجاز ، وتحول المجاز إلى أنواع من المجازات ذكرها أبو عبيدة ، وتحولت تلك المجازات إلى فرع من فروع البلاغة بعد ذلك هو علم المعاني - كما أشار صمود في دراسته المذكورة ، وهي دراسة رائدة ومتميزة عن البلاغة العربية .

ويصف صمود كتاب أبي عبيدة بأن موضوعه قرآني ومنهجه لغوي ، وعنوانه والداعي إلى تأليفه بلاغيان (ص ٩٠) ولذا فإنه يستعصي على التصنيف . وينطلق طريق المعرفة من أبي عبيدة ليتواءم مع الجاحظ الذي على يديه تبدأ شجرة البلاغة العربية معتمدا على مفهوم الإعجاز أولا وأخذا بفكرة المجاز . على أن مبتدأ تفكير الجاحظ في القضية (يتأسس

على نظرة دينية رمزية - كما يقول صمود - تنزل بموجبها المخلوقات منزلة الدوال المدلول أسمى سرمدى يهتدي إليه بالتعقل وتأويل الرمز وهو حكمة العالم والكون - ص ١٥٨) . وهذا الهدف الديني السامي لا يلغي المناحي الأدبية والفنية ، بل إنه يعمقها ويزيدها تميزاً وبروزاً . وقد نجد مع هذه الغايات غاية أخرى لن نخفى على الناظر في كتاب البيان والتبيين ، وهي أنه (كتاب يتحرك من منطلق عرقي ومذهبي . فالتصدي لمطاعن الشعوبية على العرب بإبراز عارضتهم في البيان والخطابة أمر واضح لهج به الجاحظ في نخوة واعتزاز - صمود ص ١٥٤) .

إذا . . . هذه هي البلاغة مزيج من الإعجاز والمجاز والمذهبية ، ولكن هذا المزيج لا يسمح سمات هذا العلم ولا يلغي حدوده ، بل إن سؤال الإعجاز يظل هو المحرك الأقوى في كل تاريخ البلاغة . وهاهو الباقلاني يجعل بلاغته ذات غاية قرآنية (إعجاز القرآن) والجرجاني يأخذ الإعجاز أساساً وغاية لكل جماليات الإنشاء وأدبياته ، ويجعل البلاغة كلها دلائل للإعجاز . ومن هنا يظل المزيج قائماً ويظل الاستقلال مع ذلك قائماً وتاماً ، ولن نجد أحداً يخلط بين البلاغة وتفسير القرآن لمجرد وجود (الإعجاز) مبحثاً مشتركاً بينهما . كما أنك لن تجد عاقلاً يسيء فهم البلاغة ، فيصنفها مع علوم الدين ويخرجها عن (علوم النص) ، وسيكون لقاريء البلاغة مجاله المعرفي الخاص الذي يمنحه استقلالاً كاملاً عن كل ما يمت إليه الجاحظ من مذهب فكري أو حس عرقي ، تماماً مثلما أن (أصول الفقه) علم كامل الاستقلال عن النحو والبلاغة والمنطق ، بالرغم من أنه مزيج من هذه الثلاثة ، ولو وضعنا المسألة وضعا رياضياً لقرب إلينا فهم الاشتراك والافتراق ، ولنقل إن الرقم (أربعة) هو ناتج

الجمع بين (واحد) و (ثلاثة) أى أنه مزيج من واحد وثلاثة ولكنه ليس واحدا منها ، ذاك لأن أربعة ليست هي (واحد) وليست هي (ثلاثة) وإن كانت تتضمنها داخلها ، ولو ألغيناها أو أحدهما لما كان الرقم أربعة . فالرقم هنا مزيج لهما ولكنه ليس واحدا منها . وكذلك لو ألغينا مبحث الإعجاز لما كانت البلاغة ، ولو ألغينا تأثير منطق أرسطو لما كان التقسيم الثلاثي في البلاغة ، لكن وجود ذلك كله لا يمسح البلاغة ولا يلغيها بل إنه يعززها ويقويها .

وذاك كله ليس سوى طبخة أزلية تمر بها كل أصناف التجارب الإنسانية ، ولذا قال باختين وهو مُنظرٌ عريق ومجرب : (كل شكل جديد للرؤية الفنية يتهاى ببطء خلال قرون ، والعصر لا يخلق سوى الشروط المثلى لتفتحه النهائي وإنجازه - كابانوس - النقد الأدبي ١٢٣) .

وهذا التهيؤ البطيء عبر القرون هو الذي يتيح للمزيج فرصة النضوج والتألف ، والفكر الإنساني هو المعمل الذي يتولى الخلط والتركيب والإنضاج .

ويقول الدكتور محمد مفتاح إن (كل نظرية في العلوم الإنسانية والأدبية هي تلفيق بمعنى ما . فالنظريات اللسانية والسيميوطيقية المحدثة هي توليف من البيولوجيا والمنطق وعلم النفس والإعلاميات ، فنظرية كيرماص مثلا - كما يقدمها المعجم - معتمدة على اللسانيات البنوية والتوليدية والأنثروبولوجية والدلالة المعجمية والمنطق والبيولوجيا وهم

جرّا - قضايا المنهج ١٨) . ومع هذا المزيج كله فإننا لن نكون آينشتاينين لمجرد اننا استعنا بنظرية النسبية لفهم علاقات اللفظ بالمعنى ، ولكننا سنكون جهلة وأغبياء لو أغمضنا أعيننا عن فكرة النسبية وإمكانات إفادتها لنا وإثرائها لتصوراتنا . كما أنه لم يكن من الممكن للإمام الشافعي أن يؤسس (أصول الفقه) لو أنه أغفل علوم النحو والبلاغة والمنطق ونحاشي ورودهما إلى تفكيره .

إن صناعة النظرية - عندي - عمل يشبه عمل الشعر عند ابن رشيق الذي يقول : (إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته) . ويقول أيضا : (عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر) ، وكذلك هو العمل في النظرية وفي كل فكر جاد ، ولا يستهتر بذلك او يستقله إلا الجاهل كما يستهتر بالبحر . أما العالم الذي اكتوى بنار المعرفة فإنه يعرف كيف يكون التعب والنصب .

والعبرة من ذلك كله تتلخص في كلمة جلييلة لأبي عثمان الجاحظ فيها يقول : (لم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه) .

والحاجات قائمة والرغبة في بلوغها لم تزل تدغدغ نفوس الخلق ، وليس من حل سوى السعي والسعي الحثيث ، وإن كان هذا السعي لا يفضي دنيويا إلا إلى مزيد من النقص والخلل وكما يقول حمزة شحاته (إننا نزداد جهلا كلما ازدادنا علما) ، وهذا ما جعل تشومسكي (والعمدة مرة أخرى على الدكتور المزيبي) يقول جوابا على سؤال عن النظرية التي يراها أكثر

صحة من بين النظريات الكثيرة التي اقترحت لدراسة المعنى ، قال في جوابه : (إنني أرى أنه لا توجد من بين النظريات نظرية واحدة ناجحة تماما بعد) ويزيد على ذلك بما هو أوجع فيقول : (الواقع إنني أرى أن كثيرا منها تسعى في اتجاه خاطيء إلى حد كبير) .

هذه كلمة هذا المنظر الكبير بعد مشواره الطويل والهائل في علم النحو . يقولها وهو جليل المقام ورفيع الشأن ، وذلك لأن الله تعالى لم يخلق أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه . إنه بحاجة لمن يأتي (بعد) فيرعى الفرسة كي تنمو ، وليس على العاملين في ذلك إلا ما على قوم أبي تمام ممن عناهم بيته :

لأمر عليهم أن تتم صدوره
وليس عليهم أن تتم عواقبه

ذاك لأن العواقب بيد الله وحده وعلينا نحن فعل الأسباب : هذا مانقوى عليه . وسنظل نعمل في الصدور وندور حولها ، لأننا أصلا محاطون بالدنيا ومحكومون بالدونية ، ومن شأننا النقص بالرغم من كل ما في نفوسنا من حس الكمال أو رغبة فيه .

ومن هذا شأنهم بحيث يأتي أبرز مفكرهم في القرن العشرين فيعلن إخفاق كل نظريات المعنى ، فإنه ليس غريبا عليهم أن يظنوا محكومين بالتكرار والتكرارية والحلول في ديار حلها من قبلهم أقوام من عاد ومن حير . والحق أن (التكرارية) سمة من السمات الجوهرية في اللغة ، ولقد أدرك ذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حيث نقل عنه ابن رشيق قوله : (لولا أن الكلام يعاد لنفد) وهذا على النقيض من كلام الله سبحانه

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) . هذا هو الفارق بين الخالق والمخلوق ، فإن كان بحرا نفدت حتى ولو تضاعف حجمه ومده وإن كان لغة نفدت حتى وإن عظم رصيدها وتضاعف . ولم يجد الخلق من بدّ إلا بأن يكرروا ويعيدوا ، لكي يظل لهم لغة يتصلون فيها بسائر الخلق ، فهم إذاً محكومون بعدم قدرتهم على بلوغ حاجاتهم بأنفسهم ، هذا من جهة ، وهم محكومون من جهة ثانية بلغة محدودة لا يستطيعون مدها إلى أقصى مما هي عليه ، ومن هنا يأتي التكرار ويدخل النقص . ولذا صار الوجود قائما على (الزوجية) والآية القرآنية تقرر (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

لقد خلق الله زوجين من كل شيء ، وهذه حقيقة قاطعة ، والذي علينا هو أن نتذكر ونرى لكي نؤمن بالحقيقة . وليس (المزيج) في العلوم إلا استجابة لهذا النظام الرباني القاطع ، فهي إذاً حتمية وجودية يبنى عليها نظام الحياة ، وهي قضية واضحة في القرآن ولكنها ليست على نفس الدرجة من الوضوح في الفكر البشري إلا بعد معاناة وكث ، وهذه المعاناة الطويلة هي ما أفضت أخيرا بمنظر كبير مثل باختين لكي يقول :

(إن التفكير الإنساني لا يغدو صحيحا ولا يتحول إلى فكرة إلا باحتكاك حي مع فكرة أخرى ، تتجسد في صوت الآخرين ، أي في الوعي الذي يعبر عنه الخطاب . الفكرة حدث يجري حتى نقطة التلاقي الحوارية بين وعين أو أكثر - كابانس ١٢٦) تلك هي فكرة التزاوج والتمازج . إنها حتمية أولا ثم إنها تفضي إلى مصلحة النظر العلمي وجدواه .

وإني لأجد بالملاحظة الشخصية أن العلوم والأفراد يحصل لهم الارتقاء وتظهر فيهم الجدوى في كل حالة يتم فيها التمازج والتزاوج ، وكمثال على ذلك انظر إلى جاستون باشلار ذلك الفيزيائي الذي تحول إلى البحث النظري والفلسفة ، وقس وضعه مابين فيزيائي تقليدي كغيره من أمثاله وبين وضعه الفكري بعد امتزاج الفيزياء مع الفلسفة حيث نتج لنا بعد ذلك فنٌ جديد ليس هذه ولا تلك ، ولكنه ضرب طريف متميز وإن كان مزيجاً من الايستمولوجيا والفلسفة والفيزياء والدرس الأدبي . وبذا تميز الكاتب وأفاد في مجاله الجديد .

وانظر إلى المفكر الاسلامي العظيم مالك بن نبي الذي تحول من مهندس كهربائي إلى مفكر متميز مستفيداً من درايته الرياضية وتقنياته المعرفية ليوظفها كمنهج جديد يعينه على الاستبصار والكشف عن حقائق الاسلام العظمى في نتائجها ، والدقيقة في مداخلها ، وإنك لتجد عنده من الفكر الدقيق والرأى المحكم ما يجعلك تفرح بقدرة العقل البشري على الاقتراب من الحقيقة والانضواء تحت نورها .

ولكم ان تنظروا إلى سيد قطب وتحوله من الأدب إلى الفكر الإسلامي وأن تنظروا إلى الشيخ الشعراوي وتحوله من البلاغة إلى التفسير لتروا كيف تكون نتائج المزاوجة بين العلوم مدعاة للإثراء والتنوير .

والأمر قبل ذلك وبعده ليس خياراً ، ولكنه أمر تحتمه طبيعة الصنعة وشروطها الوجودية والتنموية ، ولن توجد نظرية أو علم ، ولن تنمو نظرية أو علم إلا من خلال هذه السبيل ، وإن كانت طويلة وشاقة ، فهي كالبحر قريبة / بعيدة ، ومسطحة / عميقة ، وسهلة / صعبة ،

ومفيدة / ضارة وهي مالحة ولكنها ضرورية . وهي كما يقول ابن
رشيقي أهون ماتكون على الجاهل أهول ماتكون على العالم . هي إذا
الهيئة / المهولة ، فاختر موقعك .

الرياض ١٦/٣/١٤٠٩هـ

عابرون في كلام عابر

(١)

مدخل :

من قديم قال الحكماء إن (الحكم على الشيء فرع عن تصوره) ، وهذه قاعدة منطقية ضرورية لكل بحث نظري ولكل حكم نقدي أو تقييمي (تقويمي) . ولست أرى أفدح من أخطائنا في الحكم على (اللغة) وأنشطتها المختلفة . وهي أخطاء تنتج دائما عن سوء تصورنا للغة ووظائفها . ذاك لأننا نجنح إلى تصور الفعل اللغوي على أنه مجرد عمل إنشائي يقصد به غاية نفعية أو غاية جمالية ، ونقف عند هذا الحد من التقنين . وتأتي أحكامنا بعد ذلك على القول الإنشائي منطلقة من ذلك التصنيف الثنائي فنقسم الأدب إلى شعر ونثر ، ونقسم اللغة إلى جمالية وإلى نفعية . فإذا صادفنا نصا إنشائيا بادرنا إلى وصفه بإحدى الصفتين وإثبات إحداها يعني نفي الأخرى . ومن هنا فإن قصيدة محمود درويش (عابرون في كلام عابر) سوف تكون شعرا أو (لا شعر) . ولن نخرج عن هذا المقياس الثنائي . وهذا هو ما أسميه هنا بسوء التصور الذي ينتج

عنه سوء الحكم ، وأقول إننا لو أحسنا تصورنا للأمور لقادنا ذلك أو
لقربنا إلى إحسان الحكم .

ومن حسن التصور أن نستحضر وظائف اللغة قبل أن نحكم على نصّ
ما ، ونصدر عليه قرارا تقييما . ونحن نعرف أن اللغة ست وظائف
حسب تركيزها على أحد عناصر الاتصال الستة - حسبما قرره ياكوبسون -
ولن أدخل في حديث عن هذه الوظائف الست فقد سبق أن فعلت ذلك في
(الخطيئة والتكفير) ص ٧ ومابعدا ، ولكنني سأقف عند الوظيفة التي
تمهنا في هذا المقام ، وهي الوظيفة (التنبيهية) .

ولكي أصل إلى المراد هنا من دون تعقيدات نظرية فإنني أقترح على
القاريء أن يتذكر معي عبارة مصرية طريقة هي عبارة : نحن هنا . وهي
قول تسمعه دائما في المسلسلات المصرية يقوله أحدهم حينما يقع في دائرة
اجتماعية لا تعيره انتباهها ، فإذا أحس بالإهمال ورغب بتلافيه تمنح
وأطلق هذه العبارة : نحن هنا . والقائل هنا لا يطلق خبرا ولا يبدع قولا
أو يصوغ نكتة ، ولكنه فقط يستثير انتباهها لكي يجعل الآخرين يشعرون
بوجوده معهم ، مثلما يشعر هو بأنه موجود وليس معزولا . إنه بهذا يعقد
الجسور مع الآخرين من خلال اللغة المتمثلة بهذه الجملة (نحن هنا) ولا
تعمل اللغة شيئا سوى إثارة الانتباه وإقامة التواصل ، من خلال هذه
العبارة .

وهذه لعبة لغوية نمارسها دائما وباستمرار ، والمشكلة ليست في
ممارستنا لهذه الوظيفة من عدمها ولكن المشكلة تقع في عدم أخذ هذه
الوظيفة بالاعتبار حينما نحاول دراسة الفعل اللغوي او الحكم عليه .

وهذا يقودنا إلى استنكار كثير من الأفعال اللغوية التي هي في الواقع أفعال مشروعة ومقبولة مثلما هي أفعال تتم ممارستها دوماً في كل سياقات الحياة ، وبما أنها كذلك فهي أفعال ضرورية ومطلوبة . ولنتذكر في هذا المقام كل الممارسات اللغوية اليومية التي نمارسها داخل حياتنا مثل مكالمات هاتفية بين ولد ووالده حيث تكون الأسئلة عن الصحة وعن الجو . وهي أسئلة لا تثير إجابات بقدر ما تثير أسئلة مماثلة يطلقها الطرف الآخر عن الصحة وعن الجو . . . وهلم جرا .

ويمثل ذلك خطابات التهاني بالأعياد والأفراح ومعظم أفعال الخطاب الاجتماعي الذي لا يهدف منه إلى (الإخبار) أو (إحداث التأثير الجمالي) ولكن الغاية منه هو إقامة (التواصل) وإحداث الانتباه بحيث يشعر (المرسل إليه) بوجود (المرسل) وحضوره حضوراً تواصلياً يقيم العلاقة بين الأطراف المعنية بالاتصال ويحافظ على استمرارها . وهي لذلك صورة من صور دخول الفرد مع الجماعة والانهماك معهم في مهمهم المشترك لكي تحس المجموعة بأن هذا الفرد معهم وجوداً وانفعلاً .

ولقد تكون أمثلتنا المذكورة مجرد محطات لغوية عابرة لا تمثل حساً إبداعياً أو وظيفة إنشائية ، وهذا اعتراض قد يصدق لو وقفنا عند هذه الأمثلة فحسب ، لكن الوظيفة الانتباهية في اللغة تتجاوز هذه الوقفات فتشمل جانباً كبيراً من الإنشاء اللغوي ، وذلك مثل باب المناسبات ، وهو باب عريض واسع ، وهو أحد أبواب الأدب التي مسّها من الظلم والحيف الشيء الكبير والجليل ، منذ أيام مدرسة الديوان حتى اليوم ، مما بلغ بالمتكلمين (أو الكاتبين) حدّ طردها من ديوان الأدب ، ووصف كل ما هو مناسباتي بأنه ليس أدبياً وأن شعر المناسبات ليس شعراً . وهذا شعار

شاع في نقدنا شيوعا غوغائيا سالت بسببه الأقلام والأفواه مستكرة لكل قول يرتبط بمناسبة واعتبرت هذا صنيعا لا يدخل في الأدب ، ونحن لو قبلنا هذا لأخرجنا معظم أشعار العرب وأشعار المعاصرين ولن يبقى لنا بعد ذلك سوى التزر اليسير من صافي القول الذي ربما جاء حرا من (المناسبة) .

كما أن الأخذ بهذه القاعدة سيلغي أحد الأدوار الرئيسية للفعل اللغوي ولصناعة الإنشاء . ومن ذلك مامارسه من نشاط لغوي في حفلات التكريم وحفلات التأبين ، ومامارسه الصحافة عندنا حينما يموت وجيه أو عزيز له مكان في حياة الناس ، وليس ببغيد عنا مانشر في الأيام القليلة الماضية عن السفير محمد الحمد الشبيلي رحمه الله ، وكل الذي نشر لا يحمل لغويا أى بُعد نفعي ولا أية غاية جمالية ، ولكنه يصدر عن حس استشعاري يؤكد الجانب الانتباهي ، حتى إننا لنجد كتابات من كتاب لا يعرفون الميت ولم يقابلوه قط ، وفي ذلك أذكر مقالة الدكتور فهد العرابي الحارثي عن الشيخ الشبيلي حيث يذكر الحارثي بالنص أنه لا يعرف المكتوب عنه ، كما أذكر هنا مقالة للأستاذة خيرية السقاف (الدكتورة حاليا) عن المرحوم مطلق مخلد الذيابي في أيام تأبينه تشير فيها إلى عدم معرفتها له ولكنها تكتب إحساسا منها به (رحمه الله رحمة واسعة فهو من خيرة من يعرف ومن يحس به وبذكراه) .

وهذا كله ممارسة لغوية صحيحة ومشروعة ، بل إنها ممارسة ضرورية لأنها تحقق إحدى وظائف اللغة بما تؤسسه من تواصل مابين المرسل والمرسل إليه ، فتدخل الفرد في نظام متناغم مع الجماعة يعم ويتسع حتى يشمل الفعل الجماعي كله حينما يستند هذا الفعل على اللغة - كما يقرر

بيبر جيرو في كتابه (السيميولوجيا) حينما يشير إلى أهمية الوظيفة الانتباهية في اللغة بحيث يكون الاتصال مهما أهمية كبرى بين المشاركين في الأشكال الجماعية مثل المشاركة العامة في الألعاب الفولكلورية ولنقل العرضة النجدية أو المزمار الحجازي أو لعبة السامري والحوطي ، والأغاني الجماعية والرقصات والاحتفالات الموكبية حيث يكون الهدف هو المشاركة والاندماج داخل إيقاع جماعي متمازج ، وهذه هي الغاية الأرجح بينما يكون المضمون الدلالي - هنا - ثانويا - كما يقرر جيرو . ويشير أيضا بقطع إلى أن المضمون في هذه الحالة يتراجع أمام الجانب الانتباهي الاتصالي .

ولذا فإن الخطاب التي تلقى تحت هذه الوظيفة مثل الكلمات الاحتفالية والمناسباتية والخطب العسكرية والسياسية تحتوي على قليل من المعلومات (ودون شك ، من الضروري أن تحتوي على القليل لأن هدفها هو تجميع المشتركين حول مثال مشترك - جيرو ٢٤ ترجمة منذر عياشي) بحيث يكون المضمون أقل أهمية ، والأهمية تصبح لحالة الوجود ههنا وتأكيد التلاحم مع المجموعة .

على أن هذا الجانب الانتباهي في وظيفة اللغة يصل إلى حدّ بالغ في تأثيره علينا وربما يبلغ حدّ الاحتواء الذهني والتحكم بسلوكنا ، ولنتذكر أنه يحدث كثيرا أن يفد إلينا شخص جليل القيمة في نفوسنا فنبادر بالاتصال الهاتفي مسلمين عليه ومحتفين به ومباركين له بسلامة الوصول فإذا ما قابلناه وجها لوجه بعد ذلك صافحناه مصافحة عادية ظانين أننا قد رأيناه من قبل وأعطيناه حقه من السلام الحار والعناق ، ولا نحسّ بوجود تقصير

منا بحق هذا العزيز ، وذلك لأن المجاملة الهاتفية السابقة قد حققت غايات الانتباه وأشبعَت الرغبة في التلاحم والتواصل ، ولم نعد نشعر ببعد الشخص عنا أو بحاجتنا للاقتراب منه ، فنحن في ألفة شعورية تامة أوجدناها الخطاب الاتصالي التنبيهي مابين الطرفين ، ومن هنا فإن إشباع الوظيفة ألغى الحاجة إليها .

أقول قولي هذا داخلا منه وبه إلى قصيدة محمود درويش (عابرون في كلام عابر) وهي إنجاز قولي لا يصح النظر إليه من زاوية محدودة تقتصر على مجرد الموازنة الثنائية مابين الشعر والنثر في الخطاب اللغوي ، بل لابد من الإحالة إلى الركن الوظيفي في الفعل اللغوي ، وقياس الانجاز حينئذ على ماهو متصور من وظائف اللغة . وهذا ملمح أخفق البازعي عن إدراكه حينما حكم على القصيدة حكما لا يستند إلى تصور نظري أو منهجي .

وهذه القصيدة تتحرك عبر الوظيفة الانتباهية التي تسعى إلى إقامة الاتصال مابين الفرد والجماعة ومن ثم تحسيس المجموعة بوجود هذا الشخص معهم . إنها من جنس جملة (نحن هنا) ، وهي مع هذا تحمل وجهها الخاص وصورتها الفريدة مع بصمات تميزها عن غيرها من الخطاب ، وسوف أقف على ذلك في مقال (أو مقالات) تتلاحق إن شاء الله في الأسابيع القادمة ، وفي سبيل ذلك أقول إن وصف هذا النص بأنه شعر أو ليس بشعر ليس من العلم في شيء لأنه يصدر عن سوء تصور للغة ووظائفها ، ومن سوء تصوره سوء حكمه ، ولسوف أزيد المسألة إيضاحا على إيضاح فيما يأتي من قول .

الرياض ٣/٤/١٤٠٩ هـ

جبارون في كلام جابر

(٢)

« إما النصر وإما النصر »

يقول جوته (ترجمة عبدالرحمن بدوي) :

أود أن أتعلم كيف نقدر الكلمات
لا لشيء إلا لأنها كلمات فاهت بها الشفاء

كذا يتكلم ذلك الشاعر الغربي بحس شرقي ، وماكان القول سهلا على جوته ولن يكون سهلا على أى شاعر ، ولسوف تزداد صعوبة القول كلما ازدادت حاسة القائل اللغوية ، وكلما ازداد توغله في عالم الكلمة ، ولهذا صار قول بيت من الشعر أصعب على الفرزدق من خلع خرس ، وراح رولان بارت يصف الكاتب بأنه الذي (صار القول بالنسبة له معضلة . . إنه يختبر عمق القول لا أداتيته أو جماله) . إنه من يسعى بكدح وصبر مع جوته لكي يتعلم كيف يقدر الكلمات لا لشيء إلا لأنها (قول) فاهت به الشفاء .

هذه هي معضلة الشاعر مع اللغة ، إنه مسؤول عن أخطر فعل

إنساني ، من حيث إن اللغة هي الكشف الانساني عن الحقيقة ، وتظل الحقيقة بعيدة وغائبة إلى أن تعترضها اللغة وتدخل في صراع استكشافي معها ، وسوف تتولى إحداهما كشف الأخرى ومن ثم احتواءها والسيطرة عليها . وهذا الصراع هو ما يقف في مواجهة محمود درويش في تجربته الشعرية الطويلة . ذاك لأنه شاعر يغوص وسط كل أنواع الحصار ، فالكل ضده : العالم واللغة والذات . إنه كفلسطيني معاصر كتب عليه أن يكون بلا أرض ، وهذه مؤامرة عالمية تجعله ضد هذا العالم مثلما أن هذا العالم قد انحاز ضده . كما أنه كشاعر مكتوب عليه أن يكون في مضطرب دائم مع ذاته ومع اللغة التي تحاصره بكل سلطويتها المتجذرة ، وهذا وضع يحمله على (الضدية) . وهو هنا لا يملك إلا أن يكون مبدعا ، ومن شرط الابداع أن يتضمن العطاء والمنح ولا يكفي فيه التمرد المضاد للسلط . وهذا هو ما يعقد موقف محمود درويش ويعقد تجربته الشعرية - وبالتالي ينوعها ويعمقها - هو هذا الذي تصفه فريال غزول بالضد الجميل ، لا ضدا فقط ولا جميلا فقط ، وإنما هو ضد جميل وذلك لكي يحقق درويش خياراته المستحيلة التي وصفها يوما بأنها :
إما النصر وإما النصر (انظر فريال غزول : فصول ، المجلد السابع ، العددان الأول والثاني أكتوبر ١٩٨٦ / مارس ١٩٨٧ م ص ١٩٢ وما بعدها) .

ولكي يكون درويش (ضدا جميلا) فلا بد أن يكون شاعرا ومناضلا في آن . لا شاعرا فقط ولا مناضلا فقط ولكنها معا في آن واحد . ومن هنا فإن القصيدة - عنده - غيرها عند أي شاعر آخر ، وذلك منذ أن قبض على طرفي اللعبة ومارس ضديته الجميلة من خلال الكلمة التي ظل يتعلم

ويعلمنا كيف نقدها لأنها كلمة الصدق ، كلمة الضد الجميل : كلمة الفعل . إنها الانتقال من شعر الغواية حيث الشعراء (الذين يقولون ما لا يفعلون) و (الذين صار القول بالنسبة لهم هياما في كل واد) . ولقد صار اتباعهم غواية - كما جاء في وصف الآية الكريمة لهذا الضرب من الشعراء ، وهم شعراء (النص الجميل) فحسب ، إنه الانتقال من هذا النمط الجمالي الخالص إلى نمط الضد الجميل لذلك الشعر : شعر القول المرتبط بالفعل . إنه شعر الفئة المستثناة : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . هذه صفة من ارتبط قوله بفعله . ومحمود درويش لا يملك أبدا إلا أن يكون ذلك الشاعر الذي يعيد للكلمة قداستها من خلال إعادة الفعل إليها ، بأن يجعلها كلمة فاعلة ، وإذا فاهت بها الشفاه كفاهها ذاك كينونة .

ولئن كان درويش محاصرا من ضدية العالم له حيث سلبوه أرضه ، مثلما هو محاصر من ضدية اللغة له كمبدع يريد اختراق الحواجز التعبيرية السائدة من فوقه ، فإنه - أيضا - محاصر من نفسه لأن الرجل - كما يقول أسلافنا - يملك الكلمة إلى أن ينطقها فيكون هو حينئذ مملوكا لها .

ولقد ظل محمود درويش محاصرا من ذاته وملاحقا ملاحقة قدرية من ماضيه الشعري المجيد كشاعر للمقاومة منذ عام ١٩٦٤م حين فجر كلمات الوعد بالغضب الآتي في قصيدته الهوية :

إذا ...

سجل برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد
ولكني .. إذا ماجعت
أكل لحم مغتصبي
حذار .. حذار .. من جوعي
ومن غضبي .. !!

ومن العجيب أن طبعات ديوان (أوراق الزيتون) كانت تختم النص
بوضع علامتي تعجب بعد البيت الأخير وجاءت كلها هكذا :
ومن غضبي !!

وتكرر ذلك في كل الطبعات مما يعني أنه من صنع الشاعر نفسه ،
وليس من تدخلات الناشرين . ولقد كانت علامات التعجب هذه من
دواعي الاستغراب عندي ، منذ أن قرأت القصيدة وديوان (أوراق
الزيتون) في لندن مثل هذه الأيام في عام ١٩٧١م حيث اشترت الديوان
من أحد المطاعم العربية التي كانت تبيع الغذاء وتقدم بعض الكتب ذات
الثقافة المتميزة . ولست بناس أبدا أن علامات التعجب هذه قد أحدثت
في نفسي قلقا مزمنا يثور ويتكرر في كل مرة أتذكر هذه القصيدة أو أعود
إليها . وكانت الحيرة تمتلك نظري في هذا المقطع ، حينما أجد فيه ذلك
اليقين القاطع بالإرادة الانسانية ولكن الشاعر يباغت اليقين بالتعجب مما
يجعله قولاً احتمالياً ، ويختم القصيدة بعلامات تحيل الذهن إلى المستقبل
وتعلق حدث النص ومصيره بشيء لم يحدث - وقد لا يحدث .

ولقد كان ذلك يقلقني لأنني كنت أريد من شعر المقاومة - كما كان
يُسمى في ذلك الوقت - أن يكون شعرا للعمل وأن تكون الكلمة فيه هي

كلمة الفعل ، ومن هنا فلا مكان للتعجب . إن التعجب يخلخل قداسة الكلمة ويفسد علاقتها بالشفاه ، ولم أزل على تلك الحال من الحيرة إلى أن صارت (الانتفاضة) المباركة حيث عُدت إلى هذا النص لأفهمه ولأفهم منه محمود درويش :

حذار حذار من جوعي
ومن غضبي !!

اليوم أفهم هذه الكلمة مثلما أفهم معضلة الشاعر . هذا الشاعر الذي أطلق كلمته الوعد في عام ١٩٦٤م محذرا من الغضب ، وفي الوقت ذاته مبشرا به ، إنما كان يقول الكلمة الباحثة عن فعلها ، إنها في ذلك الوقت كلمة بلا فعل ، فهي إذاً من شعر الغواية (قول بلا فعل) ومن ثم فهي ليست سوى تجربة أدبية من نوع ما ، يقولها شاعر في الثالثة والعشرين من عمره ، يصدر ديوانه الثاني ، ويخطط للخروج حيث بيروت والأضواء والبريق والمجد ليكون شاعرا رائدا من أولئك الحداثيين اللامعين ، ويصبح حينئذ اسماً جذاباً للدارسين والغاوين وسيدا لمنابر الشعر ومهرجاناته ، وكل هذا شيء جميل وجميل جدا ، ومفيد - أيضا - لكل النقاد الجدد لأنه يقدم جسداً حياً وجميلاً يكون دائماً قابلاً للتشريح والتذوق والمتعة ، ولسوف يصبح من الممكن للشاعر هذا أن ينام ملء جفونه عن شوارد قصائده ، بينما يسهر النقاد جراءها ويختصمون ، ولسوف يصل الخصام إلى أسئلة المواطنة والخيانة فمحمود درويش وطني وخائن حسب هوية الناقد ومزاجه .

هذا - إذا - هو التعجب القدري الذي لصق بقصيدة سَجَل أنا عربي (بطاقة الهوية) . . إن الهوية هنا في موضع عجب ، ذاك لأن الشاعر

يسعى إلى بناء هوية من نوع جديد ، غير تلك الهويات المعهودة ، وطريقه إلى ذلك هو الكلمة ، وهذا لن يتسنى تحقيقه إلا بإعادة كرامة اللغة إليها ، بأن نتعلم كيف نقدر الكلمات فنجعلها سلاحا وسلاحا جميلا . وهذا هو ما فعله درويش حيث بدأ بالكلمة السلاح في ديوانه « أوراق الزيتون » ثم دخل إلى الجميل (الكلمة الجميلة) في رحلته الشعرية الطويلة بعد خروجه ، ويفضي به المطاف أخيرا إلى عقد المزاوجة ما بين السلاح والجمال فيأتي بالضد الجميل وبالكلمة الفعل - وهنا أقول مع جوته :

اعملوا إذا أن كلمات الشاعر وقوافيه تحلق دائما دائما
وهي دائما في تحليق قارعة أبواب الفردوس بهمس
وهدوء ناشدة لنفسها حياة خالدة .

وهي دائما في تحليق ، قارعة للأبواب ، وناشدة للخلود تلك هي كلمات الشاعر التي لن نفهمها أبدا إلا إذا نحن دخلنا فيها وفي عالمها ونسبناها إلى سياقها الشعري الذي تتحرك فيه ، وهذا موضوع مقالتنا القادمة إن شاء الله ، حيث نرى أن الغضب تحول من دلالة القول إلى دلالة الفعل لكي يعيد للكلمة فعلها ولا يصبح الشعر مجرد تخييل احتمالي ولكنه إنجاز فعلي . والنص المنجز يحدث جماليته من خلال (أثره) المحرك وقوته الانفعالية ، هذه القوة التي تقيم الخيار الفلسطيني على معادلة حاسمة لمصلحة الانسان والحضارة والتاريخ : إما النصر وإما النصر . إما الفعل وإما الفعل ، ومن ثم يكون الشعر : إما الشعر وإما الشعر ، فالبديل للجميل هو الجميل ، والبديل للغة هو اللغة ، وينتهي هنا زمن الضياع ليبدأ زمن الفتح والانسان . هذا هو فعل اللغة ولغة الفعل ، ولتستمر في حلقتنا القادمة .

الرياض ٨/٥/١٤٠٩ هـ .

نص القصيدة :

حارون في كلام حابر

محمود درويش

أيها المارون بين الكلمات العابرة
احملوا أسماءكم ، وانصرفوا
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا ، وانصرفوا
واسرقوا ماشئتكم من صور ، كي تعرفوا
أنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء ..
أيها المارون بين الكلمات العابرة
منكم السيف - ومناد منا
منكم الفولاذ والنار - ومننا لحمنا
منكم دبابرة أخرى - ومننا حجر
منكم قنبلة الغاز - ومننا المطر
وعلينا ما عليكم من سماء وهواء
فخذوا حصتكم من دمننا .. وانصرفوا
وادخلوا حفل عشاء راقص .. وانصرفوا
وعلينا ، نحن ، أن نحرس ورد الشهداء ..

وعلينا ، نحن ، أن نحيا كما نحن نشاء !

أيها المارون بين الكلمات العابرة

كالغبار المر ، مروا أينما شئتم ولكن

لا تمروا بيننا كالحشرات الطائرة

فلنا في أرضنا مانعمل

ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى أجسادنا

ولنا ماليس يرضيكم هنا :

حجر .. أو حجل

فخذوا الماضي ، إذا شئتم ، إلى سوق التحف

وأعيدوا الهيكل العظمي للهدد ، إن شئتم ،

على صحن خزف .

فلنا ماليس يرضيكم : لنا المستقبل

ولنا في أرضنا مانعمل

أيها المارون بين الكلمات العابرة

كدسوا أو هامكم في حفرة مهجورة ، وانصرفوا

وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدس

أو إلى توقيت موسيقى المسدس !

فلنا ماليس يرضيكم هنا ، فانصرفوا

ولنا ماليس فيكم : وطن ينزف شعبا ينزف

وطنا يصلح للنسيان أو للذاكرة ..

أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
أن أن تنصرفوا
ولتموتوا أينما شئتم ، ولكن لا تموتوا بيننا
قلنا في أرضنا مانعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأول
ولنا الحاضر ، والحاضر ، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا .. والآخرة
فأخرجوا من أرضنا
من برنا .. من بحرنا
من قمحنا .. من ملحنا .. من جرحنا
من كل شيء ، وأخرجوا
من ذكريات الذاكرة
أيها المارون بين الكلمات العابرة ! ..

السَّيْلُ وَالْجَمِيلُ

١ -

أيها المارون بين الكلمات العابرة
احملوا أسماءكم وانصرفوا
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا
واسرقوا ماشئتكم من صور ، كي تعرفوا
أنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء .

كذا يستهل محمود درويش قصيدته القصيدة ، وهذا هو المقطع الأول منها . والقاريء لا يتواجه مع هذه الأبيات إلا بعد أن يمر على عنوان القصيدة : (عابرون في كلام عابر) ، وبما أن هذه الجملة هي فاتحة النص ، وهي الباب الذي يلج منه القاريء إلى القصيدة فإن وقفنا عند هذه الجملة لابد أن يكون بمقدار أهميتها للنص وللقاريء . ذاك لأن العنوان هو بمثابة (الهوية) للقصيدة ، لأنه - أولا - يحمل لنا صورة من

صور تفسير الشاعر لقصيدته . فالعنوان هو آخر مايكتب من النص الشعري ، بعد ان تزول عن الشاعر حالة المخاض الكتابي ويفرغ مما يسميه بايرون بالحمم البركانية التي تحمي الشاعر من الجنون . وهي تحميه من الجنون لأن الكتابة هي البديل عن الانفجار النفسي بما أنها انفجار لغوي يوازي بل يفوق درجات الانفعال الذاتي . وإذا فرغ الشاعر من كتابة قصيدته راح يبحث لها عن عنوان . هذا العنوان سوف يكون خلاصة دلالية لما يظن الشاعر أنه فعوى قصيدته ، أو أنه الهاجس الذي تحوم حوله . فهو - إذا - يمثل تفسير الشاعر لنصه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن العنوان هو إعلان عن النص وإشهار له ، ويتضمن ذلك إغراء القارئ باستقبال النص والدخول إليه . ولا ريب أن الشعراء - عموماً - يدركون هذا المعنى الاغرائي ويسعون إليه بإخلاص واع ولذا نجد دائماً بلاغة متميزة في اختيار العناوين (أو العنوانات . وأنا أفضل واستخدم كلمة عناوين) ، وقد تبلغ بلاغة العناوين درجات أرقى بكثير من بلاغيات النصوص .

ولقد شاع استخدام العناوين البليغة شيوعاً يوشك أن يؤسس ثقافة نصوصية متميزة تخص العناوين دون النصوص ، وربما يتأسس من ذلك جنس كتابي له حدوده ومراميه وبلاغياته الخاصة ، وقد يكون شبيهاً بالتوقعات العربية القديمة في دقتها وإيجازها وبراعتها المجازية المتميزة ، وقد يحتاج هذا الأمر إلى وقفة غير هذه الوقفة لعلها تيسر لي في مناسبة

أخرى - إن شاء الله - على أنني قد لمست جانبا من الموضوع في الخطيئة والتكفير ص ٢٦١ ، ولكنني ما زلت أرى أنه يحتاج إلى وقفة خاصة به ، لأن العناوين - اليوم - تشكل مصدرا أساسيا من مصادر الثقافة العصرية يجعلها ذات جماليات خاصة تستحق السبر والدراسة . فهي بدعة جديدة لم تكن معروفة في الثقافة العربية القديمة . وفي القديم كانت القصائد تنسب إلى حروف الروى ، فيقولون لامية العرب ولامية العجم ، ويصفون القصيدة بالكلمة فيقولون : قال لبيد في كلمة له . ونسبة القصائد لحروف رويها يجعلها ذات هوية صوتية ، فهي صوت لغوي يستند على حرف يوحد كيان القصيدة ويحقق عضويتها ، وهذا أمر لا ينحصر الشعر فقط ، ولكن اختفاء العناوين كان هو الأصل في كل أنواع الفعل الثقافي حتى إن سيبويه يؤلف في النحو ولا يضع عنوانا لمؤلفه ، ويصير اسمه « الكتاب » ويخصص فيقال « كتاب سيبويه » مثلما يقال معلقة امرئ القيس . وظل الأمر في الغالب كذلك إلى أن جاءت فترة الإحياء فصارت المناسبة هي العنوان . وإن نظرة في الشوقيات لتوضح أن عناوين أحمد شوقي هي أسماء الأحداث التي جاءت من أجلها النصوص ، فكأن العنوان عندهم هو همزة الوصل ما بين النص والحادثة ، أو هو تبرير لوجود النص ، أو تأكيد لانتهاه . وإذا خرج النص عن المناسبة فإن العنوان سيكون موضوع القصيدة مثل قصائد شوقي في حكايات الحيوان . والموضوع هنا يختلف عن الدلالة ، لأن الموضوع يصدر عن

المعنى الصريح والغرض المكشوف ولا يلامس الأبعاد الدلالية الشعرية التي تتوجه نحوها الكتابة الإبداعية .

وإذا عاجاء الرومانسيون فإنهم يراوحوون في عناوينهم ما بين المناسبة وما بين الحس العاطفي الذي يسود جو القصيدة ونجد في ذلك عناوين نموذجية مثل : حنين / لوعة / هجران / حديث النفس / الطائر الجريح / غلواء . . . الخ مما هو سائد لدى الرومانسيين .

ولكن الحركة الشعرية الحداثية تأتي وتغير - فيما تغير - هذا السياق في العناوين الذي يقوم إما على مناسبة خارجية أو مناسبة داخلية مما هو ضرب من المحاكاة لما هو ماثل في العالم أو كما هو منبثق من الروح . يتغير ذلك كله ليفضي بنا (نحن والنص) إلى ضرب من المواجهة المتحدية مع جمل شعرية تنصدر النصوص وتباغت القاريء في سلسلة من التحولات الدلالية ، تبدأ مع النفس الأول ولا تنتهي إلا بالعودة ثانية إلى العنوان بعد استكمال القراءة للنص كله . فالعنوان هنا هو أول ما يواجه القاريء ، ومن هنا فهو بداية النص ، ولكنه بالنسبة للشاعر هو آخر ما كتب . ومن هنا فإن

نهاية الشاعر هي بداية القاريء ، وبذا يكون العنوان بداية ونهاية في آن . وهذا يجعل علاقتنا معه ضرباً من التوتر المتطفل ، أقول متطفلاً لأن العنوان في حقيقته عمل طفيلي ، يأتي قسراً وبدون دعوة ، ولكنه - مع هذا - يظل مندجاً مع المجموعة . أما لماذا يكون العنوان طفيلياً فلأنه عقلي جاء بعد أن ثاب عقل الشاعر إلى رأسه ، وبعد أن أفرغ انفعالاته وحولها إلى نص حي ماثل ، ثم نظر إلى هذا النص وفكر فيه لكي يستنبط منه عنواناً ، وقد يضع إحدى الجمل مقتطعا إياها من سياقها أو ربما استلهم

الفكرة الإجمالية لغايات النص - كما يفعل السياب : أنشودة المطر ، النهر والموت وسواها - أو قد يضع جملة تفسيرية كما هو وضع قصيدتنا هذه ، (عابرون في كلام عابر) ، وهذه جملة العنوان ، وهي جملة غير موجودة داخل النص ، ولكنها متحولة عن جملة أخرى هي قوله :

أيها المارون بين الكلمات العابرة

وهذه الأخيرة تكررت خمس مرات ، وكانت مطلعا للقصيدة وخاتمة لها ، كما أنها جاءت مطلعا يتكرر طلوعه في مقاطع القصيدة الأربعة . ومن ثم فإن جملة (أيها المارون بين الكلمات العابرة) هي نواة النص وعنصره المهيمن (أى الصوتيم) ، فهي البداية وهي النهاية وهي مستهل المقاطع ، وهي الجملة التي تولدت عنها جملة العنوان . أما باقي جمل النص فهي تفرع دلالي ينتج عن هذه الجملة . ويتطور ويتنوع هذا التشكيل ويظل في دائرة التحولات إلى أن تصبح الجملة الأولى نائجا دلاليا بعد أن كانت هي المولدة ، وذلك حينما انتهى النص بها فصارت بذلك نتيجة وقد كانت من قبل مقدمة .

لذا فإن هذه الجملة هي لب النص ، ولن ندرك أبعاد النص إلا من وقوفنا على هذه الجملة :

أيها المارون بين الكلمات العابرة .

ولن يصعب علينا أن ندرك أن جملة العنوان هي رديف دلالي يعادل هذه الجملة ويفسرها ويمد من دلالتها ، ولكي ندرك ذلك عيانا فلنضع الجملتين معا وبإزائهما النقيض الدلالي لكل منهما حسب الجدول التالي :

الجملة	عابرون في كلام عابر
التقيض	باقون على لغة باقية

الجملة	أيها المارون بين الكلمات العابرة
التقيض	أيها الباقون في «على» اللغة الباقية

نلاحظ من هذين الجدولين أن التقيض للجمليتين واحد ، ولا يوجد اختلاف إلا من حيث التعريف والتنكير حيث تكونت جملة العنوان من عناصر مُنْكَرَة ، مما يشير إلى الشمول والإطلاق ، ولكن هذا الشمول يتحدد ويقيد داخل النص باستخدام أداة النداء (أيها) التي تقتضي وجود منادى محدد في حدود مدار الصوت ، لأننا عادة ننادي من يسمعنا - ولو مجازيا أو افتراضا - وهذا التحول من الإطلاق إلى التقييد يعني أن الشاعر قد أحضر المخاطبين وجعلهم مادة لصوته وكلماته بعد أن قيدهم بأدوات التعريف وطوقهم بالكلمات (بين الكلمات) ، وهذا هو الفارق الدلالي ما بين جملة النص وجملة العنوان ، فارق الشمول والتقييد . ولكنها جملتان مترادفتان متكاملتان بعد ذلك ، ويوجد بينهما نقيض واحد يمثل

البديل الغائب عن النص ولكنه حاضر مائل ، من حيث إن النص ليس فيما هو حاضر فقط ولكنه أيضا فيما هو غائب ، ودلالات الغياب ضرورية للنص بمقدار ضرورة الحضور ، ونحن لا نفهم هذه فهما صحيحا إلا بتلك . ومثلما أننا لا نعرف الليل إلا بوجود النهار والعكس فإننا لا ندرك كنه الشيء إلا بعد إدراكنا لنقيضه . وهذا سرٌ كوني من أسرار الخالق

سبحانه ، جعله الله قاعدة معاشية لنا . ولا ريب أنه أيضا قاعدة لحياة النص ، واللغة مطابقة لحياة الناس ، متتجي اللغة . ولا تستقيم الأمور إلا بوجود هذين الطرفين معا . ونقرأ في الآية الكريمة قول الله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .

لا تستقيم الحياة بليل فقط ، ولا تصلح بنهار فقط ، ولكن لا بد من وجودهما معا ، ولذلك جاءت الآية الأخرى مكملة للسابقتين : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . كذا هي الحياة في الكون ليل ونهار . أما في النص فإنه لا بد من وجود معادلة تميزنا على الفهم وذلك بأن ندرك (نقيض الكلمة) لكي نفهم معناها . لأن معنى الكلمة يقتضي شيئين في آن ، فهي تثبت مدلولها وفي الوقت نفسه تنفي نقيضها ، والعكس في حالة السلب - . ولذلك فإن جملة (عابرون في كلام عابر) تقتضي وتحتاج جملة (باقون على لغة

باقية) ، حيث الأولى تعني اليهود ، حسب السياق الذهني للنص ، وهو مايؤيده ويفضي إليه سياق الدلالات التركيبية في القصيدة حسب إشارات مثل : عشاء راقص / الهيكل العظمي للهدهد / العجل / . مع إشارات أخرى ذات دلالة خاصة مثل الفولاذ وقنبلة الغاز والغبار المر وغيرها مما يشكل صورة خاصة هؤلاء (العابرين) ويقابلهم (باقون على لفة باقية) وهم الفلسطينيون حسب السياق الذهني الذي يؤيده - أيضا - سياق النص بما فيه من إشارات للدم واللحم والمطر والحجر والقمح ، وهي عناصر البقاء في مقابل عناصر العبور والمرور . ذاك لأن المطر لا يمر ولكنه يهبط ويتغلغل وسط الأرض ، ولا يكون المطر مطرا إلا إذا نزل وانسكب على وجه البسيطة ، أما إذا مرّ وراح فإنه سحب زل وليس مطرا . وكذلك اللحم والحجر هي أجزاء لا تنفصل ولا تمر ، بينما الغبار والغاز والقنبلة هي أشياء لا تملك عضوية الارتباط والبقاء وليست سوى عناصر أجهضت من فطريتها وطبيعتها وأحيلت إلى مواد زوالية تفني نفسها في الوقت الذي تفني فيه غيرها .

والآن هل أقول : وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . يبدو أن حلقة اليوم قد طالت ولذا أقف لأواصل الحديث في الأسبوع القادم - إن شاء الله .

السَّيْلُ الْجَمِيدُ

(٢)

اللغة / الانسان

٢ - ١ تتردد جملة (أيها المارون بين الكلمات العابرة) ست مرات في نص القصيدة ، وهذا يستدعي - بالضرورة - تكرار الجملة النقيض (أيها الباقون في اللغة الباقية) . وهذا يجعل قصيدة محمود درويش تتحرك على مستويين متلاحمين . وهذان المستويان يتصارعان صراعا محتدما هو ناتج لذلك التلاحم الإجباري ، حيث (المارون / العابرون) هم ظاهر النص وعنوانه وصورته البارزة ، بينما (الباقون) هم المستورون في الداخل والمغطى عليهم ، لكن هؤلاء الباقين يتكشفون من داخل النص عبر ما يحملونه من صفات تتلاحق في القصيدة وتبرز من مقطع إلى مقطع ، فهم يمثلون ضمير المتكلم مع أنهم غائبون عن ظاهر النص وعنوانه . ومن هنا فإن صراع الصفات يأخذ بالمواجهة منذ اللحظة الأولى :

احملوا أسماءكم ، وانصرفوا

واسحبوا ساعاتك من صور ، كي تعرفوا

وأسرقوا ما شئتم من صور ، كي تعرفوا
إنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء .

هنا يبدأ الكشف والتعرية ، فهؤلاء (المارون / العابرون) يستندون على علاقة مفصولة مع أساسيات الوجود المعاشي . وأول حالات الانفصال تقع ما بين الاسم والمسمى ، ما بين الدال والمدلول . وهذه عادة تقوم في الأعيان البشرية على علاقة عضوية ، فصالح الدين يظل هكذا في كل اللغات وفي كل الأزمان ، ولن نعرف الرجل إلا بإسمه هذا . والإسم هنا علامة عليه ترتبط به ارتباطا عضويا (لا ينفصل) . بينما علامته الجنسية (رجل) سيمسها التغير من لغة إلى أخرى ، ومن مرحلة من مراحل حياته إلى أخرى (من طفل إلى شاب إلى رجل إلى كهل . . . الخ) في حين يظل اسمه واحدا ثابتا . أما أولئك المارون فإنهم لا يتصفون بهذه الصفة البشرية ، ولذا فإن أسماءهم مفصولة عنهم ، ومن أجل ذلك راح الشاعر يدعوهم لأن يحملوا هذه الأسماء ويلملموها كالتناع ثم ينصرفون : (احملا أسماءكم ، وانصرفوا) .

ومثلما أنهم منشطرون من الداخل بانفصال الاسم عن المسمى فإنهم - أيضا - مفصولون عضويا عن (الوقت) ، وساعاتهم لا تملك وقتا ولا ترتبط بوقت خاص بها . ذاك لأن الوقت يخص (نا) . وساعاتهم - إذا - دخيلة على وقت (نا) . ومن كان هذا شأنهم وتلك صفتهم فإنهم لن يملكوا من الأشياء سوى (صورها) والصورة هي ظل الحقيقة ، وليست الحقيقة . مما يعني أنهم قوم بلا حقيقة منذ أن كانوا بأسماء مبتورة العلاقة أي بلا أصول ومنذ أن كانوا لا ينتسبون إلى وقت ، مما أفضى بهم إلى مجرد عابرين / مارين ليس بيدهم سوى أن يسرقوا الصور . ومن قبل سرقة

الصورة فمعنى ذلك أنه عاجز عن امتلاك الواقع ولسوف يعرف انه لن يعرف . وهذه هي غاية الضياع لهؤلاء المتجردين من الحقيقة ، كما تقول الدلالة العامة لهذا المقطع : تجرد المارين من الحقيقة ، من خلال انفصاهم عن مساهم وعن الوقت وعن الواقع (نقيض الصورة) .

وفي مقابل هؤلاء المارين نجد (الباقين) الذين يتسبب إليهم الوقت (وقتنا) والأرض (أرضنا) ، وبما أنهم كذلك أصحاب وقت وأصحاب أرض فإن صفتهم تتعمق في المكان من خلال انتساب الحجر إليهم ومشاركته لهم في البناء (كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء) . ومن هنا انطلق صوتهم في المقطع الرابع معطيا هذه النتيجة :

فلنا في أرضنا مانعمل .

ويفضي ذلك إلى إدخالهم إلى أعماق الزمان وتعميقهم فيه مثلما تعمقوا في الأرض ، فنقرأ بعد ذلك :

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأول

ولنا الحاضر ، والحاضر ، والمستقبل

ولنا الدنيا هنا .. والآخرة .

ويبدو الصوت الشعري قاطعا في ثقته بامتلاك الماضي وامتلاك المستقبل والدنيا وارتباطها جميعا بالمكان من خلال تكرار الظرف المكاني (هنا) ، ولكنه حينما يشير إلى الحاضر يشعر بأن هذا الحاضر ليس مملوكا له ملكية قاطعة مثل ملكيته للأخريات ، ولذا فإنه يؤكد على الحاضر بأن يورد الإشارة إليه مرة تلو أخرى فيعطف هذا الحاضر على نفسه (الحاضر

والحاضر) مما يعني أن ذلك هو موضع الصراع والمداولة الانفعالية ، ويكرر لذلك إشارة الملكية (ولنا) أربع مرات في أربعة أبيات ، وهي تتكامل مع مجمل إشارات الملكية المترددة في النص اثني عشرة مرة (لنا / ولنا / فلنا) مثلما تتردد إشارات الإضافة (نا) محتوية للوقت والأرض والبر والبحر والقمح والملح والجرح وفي هذا ترجمة لحقيقة هؤلاء الباقين في مواجهة المارين العابرين ليكون الفارق القاطع بين الوجودين متمثلا ومنطلقا في قوله :

ولنا ماليس فيكم
وطن ينزف شعبا ينزف
وطنا يصلح للنسيان أو للذاكرة .

هذا هو الفاصل ما بين الوجودين (لنا ماليس فيكم) . إن ماهو ثابت لنا هو بالضرورة منفي عنكم ، فالثابت لنا هو الوطن الذي ينزف شعبا . وهذا الشعب ليس ناتجا سلبيا لذلك الوطن فهو شعب يأتي عن نزيف ، وهذا النزيف نفسه يتمخض عن نزيف آخر يصدر عنه وطن ، فنحن والوطن نزيف ينزف . والحاصل من ذلك النزيف المزدوج هو هذا الكائن الحي الذي يصلح للنسيان مرة وللذاكرة مرة أخرى . ولا يصلح للنسيان إلا ماهو مادة صحيحة للذكرى حينما يحدث تبادل الوظائف وتفاعلها ، فالوطن ينزف شعبا ، والشعب ينزف وطنا ، وهما معا صالحان للنسيان ، وهما - أيضا - صالحان للذاكرة في الوقت نفسه . وهذا ماليس فيكم إذ إنكم لا تصلحون للنسيان ، مما يجعل هؤلاء المارين خارج إطار الذهن البشري ، لأنهم بلا مسميات منذ أن ابتذلت أسماؤهم على

قارعة الزمن ، ولم يعودوا صالحين للنسيان . ولو صلحوا للنسيان لأمكن تذكرهم وسيدخلون حيثنذ إلى الذاكرة ، ولكنهم غير صالحين لذلك .

والنسيان هنا معناه التذكار ، لأننا لا نقول عن الشيء إنه (منسي) إلا إذا نحن تذكرناه ، وبمجرد اتصاف الشيء بهذه الصفة يقتضي حضوره واسترجاعه ، فإذا قلت نسيت فلانا فهذا معناه تذكرت فلانا ، لأنه قد حضر في الوجود الذهني ، ومن هنا فإن (الوطن) عند محمود درويش صالح للنسيان لأنه مادة من مواد الذاكرة ، ونسيانه لا يفضي إلى زواله ولكن ذلك يحيله إلى مرجعية موثقة تمكنه من الحضور في أية لحظة نشعر بفقدانه فيها . وإعلان النسيان هو بمثابة الإعلان عن فقداننا للشيء ومن ثم شروعا في البحث عنه ، وهذا مايفعله هذا النص : إنه يعلن حالة النسيان فيشرع بالاستدكار . وهذا ما لا يقوى عليه (المارون / العابرون) ولكن (الباقيين) هم وحدهم من يقوى على ذلك لأن الماضي لهم ، ولهم المستقبل . ومن ملك هذين فلا بد أنه سيمتلك الحاضر . وهذا ماجعل الشاعر يكرر كلمة الحاضر دون الماضي المقطوع به أو المستقبل المملوك بكل تأكيد .

٢٠٢ تلك دلالات يموج بها النص ويظهرها مكشوفة فوق سطحه ، ولكنها من هذا الكشف تفضي إلى مايمكن أن نسميه بالحقيقة النصوصية ، وهي أن النص هذا يتحرك من خلال إثبات المنفي ونفي المثبت بدءا من جملة العنوان : عابرون في كلام عابر ومايقابلها وهي الجملة النقيض : باقون

على لغة باقية . ثم مانجده في النص من تتابع متواتر لهذه المعادلة ؛ حسب
الجميل التالية :

ولنا ماليس يرضيكم هنا :
حجر .. أو حجل

...

فلنا ماليس يرضيكم : لنا المستقبل

...

فلنا ماليس يرضيكم هنا ، فانصرفوا
ولنا ماليس فيكم : وطن ينزف شعبا ينزف
وطنا يصلح للنسيان أو للذاكرة .

تلك هي معادلة التضاد التي تنفي وتثبت في آن واحد ، وكل ما هو
(لنا) فهو ليس (لكم) ، وهو أيضا (ليس يرضيكم) . ومن هنا فإن
النص قد أتى كله متحركا من خلال إثبات (الملكية) والانتفاء للأرض
والوقت ، ونفي ذلك كله عن (المخاطبين) .

ومنذ أن أصبح الوقت وأصبحت الأرض عضوا مضافا فإن المضاف
إليه قد صار هو المتكلم ، وظل يتكلم من خلال النص بصوت واحد هو
صوت الجماعة ، وفي مقابل ذلك ظل (المارون / العابرون)
لا يتكلمون وإنما يستقبلون القول فقط . وظلوا مادة للكلام وموضوعا
للكشف والتعرية ولكنهم محرومون من حاسة النطق ، مما يجعلهم خارج
النص وإن كانوا فيه ، وخرجهم عن النص وعدم فاعليتهم فيه هو
ما جعل الشاعر يصف كلماتهم بأنها عابرة ، ومن صارت كلماته عابرة فهو
بالضرورة عابر ، لأن اللغة هي الوجود الفعلي في النص ، فإذا تحول هذا

الوجود إلى عبور فهذا معناه زوال الوجود ومروره - كما يقطع النص -
ومن هنا فإن ماثبت نصوصيا يتحقق بعد نفي النقيض (ولنا ما ليس
يرضيكم هنا ، فانصرفوا) . والانصراف حتمي لأن العابر والمار لا بد أن
يؤول إلى انصراف مهما مكث .

هذه وقفة سريعة على دلالات النص رأيتها ضرورية ، ولسوف
أعرض لمسائل أخرى تتعلق بالقصيدة وقضيتها وتحولاتها في المقالات
القادمة إن شاء الله .

من الفعلي إلى الممكن

منذ أفلاطون وأرسطو والنقد العالمي مشغول بمسألة العلاقة ما بين النص والواقع ، ومدى تناظر هاتين البنيتين ، محاكاة أو تقابلا أو تقاطعا أو تجاوزا ، حسب توجهات المدارس والرؤى المختلفة حول وظيفة النص وحول (ماهيته) . ولقد طغت النظرة النصوصية على توجهات النقد العربي القديم ، حيث شاع مبدأ الفصل ما بين النص والواقع الفعلي للكاتب ، ولذا فإن الشاعر لا يقع عليه الحدد فيما قال في شعره ، كما أن الهجاء الشعري ظل سائدا طوال فترات الثقافة العربية منذ الجاهلية حتى العصور الإسلامية ولم يحدث أن تعرض شاعر من شعراء الهجاء لأي عقاب انتقامي بسبب من شعره مهما كان الهجاء بذيئا وجارحا . وأقوال النقد والممارسات الثقافية تؤكد هذا الفصل الواضح عند العرب مبدايين ومفكرين - ولن أستطرد في هذا تاركا التفصيل لوقفه أخرى غير هذه الوقفة - . ولكن أقول هاهنا إن التناظر ما بين النص والواقع ظل سؤالاً كبيراً في النقد الغربي وظلت الإجابات عليه تترى بصورة متباعدة ومثيرة . ولا ريب أن كل إجابة منها ستظل منظورا فكريا مجردا يفيدنا في التأمل والنظر ، ولا يتحول إلى تصور نقدي إلا حينما يصطدم بنص ما . وهذا

هو ما أجدني فيه اليوم ، وأنا أهم بالوقوف وقفة الموازنة بين (عابرون في كلام عابر) و (بطاقة هوية) وكلاهما لمحمود درويش .

ولقد جرتني هذه الوقفة إلى استدعاء ما طرحه بعض النقاد في التفريق ما بين نوعين من الوعي النصوصي ، أحدهما الوعي الفعلي والآخر الوعي الممكن ، حيث يكون الفعلي حينما يصدر النص عن تصوير مباشر للحس الحادث في بيئته ، أما الوعي الممكن فيتحقق إذا استطاع النص تحويل ذلك الحس إلى تصور تخيلي يكسر حدود الواقع الفعلي ويدخل إلى آفاق (المابعد) و (المأشمل) فيصبح الخاص عاما والذاتي جماعيا . هذه رؤية نقدية طرحها عدد من النقاد ، وترددت في كثير من الكتابات النظرية والإجرائية ، ولقد لمست الفكرة تمثل أمامي متصدرة نظرتي في قصيدتي درويش هاتين ، حيث وجدت أن (بطاقة هوية) تتحرك وتصدر عن وعي فعلي يتحكم فيه الحس الخاص بمعضلة الذات والهوية ، ويقف النص عند هذا الحد من دون أن يلامس مشارف (الوعي الممكن) . وهو نص يتحرك على جملة أساسية هي : سجل أنا عربي .

وتتكرر هذه الجملة . وفي كل مرة من هذه المرات تأتي فائحة لمقطع شعري يبدأ منها ويتمدد ليشتهي بجملة أساسية رديفة هي : فهل تغضب ؟ وأقتبس هنا المقطع الأول لأجعل القاريء شريكاً لي في تمثيل النص :

سجل

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

واطفالي ثمانية .

وتاسعهم .. سيأتي بعد صيف
فهل تغضب ؟ .

ويتلو ذلك خمسة مقاطع كلها تبدأ من جملة (سجل أنا عربي) وتنتهي
في ثلاثة منها بجملة (فهل تغضب) مما يجعل النص مركبا من هذا
الصوتيم :

سجل أنا عربي ، فهل تغضب ؟

وسمات هذا العربي تفتح في النص كالتالي :

أنا اسم بلا لقب

...

جذوري

قبل ميلاد الزمان رست

وقبل تفتح الحقب

...

وميزاتي :

على رأسي عقال فوق كوفية

وكفي صلبة كالصخر

تخمش من يلامسها .

...

وعنواني :

أنا من قرية عزلاء .. منسية

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها في الحقل والمحجر

فهل تغضب ؟

وفي معمعة التعريف وكتابة الهوية يأتي سؤال متوتر :

فهل ترضيك منزلتي

أنا اسم بلا لقب

وغاية الحدث هي خاتمة القصيدة :

حذار .. حذار .. من جوعي

ومن غضبي !!

هذه بطاقة الهوية في السؤال عما يغضب ، وهذا العربي الذي لا يملك أية صفة منذ أن كان باحثا عن (وجود) هو مجرد وجود . وكلمة عربي هنا هي الهوية وهي الاسم وكونها إسما معناه أنها هي ذلك (الوجود) المنشود ، ولذا تكررت خمس مرات من أجل تأكيد اسميتها وتحقيق وجودها ، وأيد ذلك ترداده جملة (أنا اسم بلا لقب) مرتين ليؤسس جملة ضمنية متلاحمة هكذا :

أنا عربي

أنا اسم

أنا وجود

فلكي يكون وجودا لابد أن يكون اسما ولكي يكون اسما لابد أن يكون عربيا ، وكون العروبة اسما هو ارتفاع بها إلى مستوى الثبات والتلاحم العضوي . وهذا استوجب نفي كونها لقبا ، لأن من شأن اللقب عدم الثبات . أما الإسم فثابت ، كذلك جاءت كلمة عربي خبرا للمبتدأ وهذا المبتدأ هو الضمير الأول (أنا) ، ومن شأن الخبر أن يمنح المبتدأ وجودا ،

إذ لا قيمة لمبتدأ بلا خبر .

كما أن كلمة عربي جاءت غير معرفة بـ«ال» فما يعني أن (أنا) جزء من الخبر .

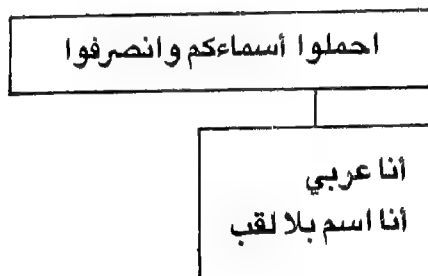
فالمتكلم جزء يسعى إلى الدخول إلى كل يشمله . وهذا الكل يتجسد في كلمة (عربي) . ومن هنا تصبح هذه الجملة صورة لحسّ خاص يمثل واقعا فعليا لا يزاحمه أى واقع آخر مهما كان ذلك الواقع ، فالقيمة الأولى والأخيرة هي للهوية العربية التي صارت - في هذا النص - اسما لا تزاحمه الصفات ، ولا يشترك فيه شريك حتى وإن كانت قرية الشاعر ، التي بادر النص بحرمانها من شرف الاشتراك بالاسم (شوارعها بلا أسماء) ، ولقد صارت القرية عزلاء منسية وبلا اسم لأن ذلك كله من حق (الأنا) وحدها . والشاعر - هنا - مشغول بالهوية الأساس وهي هوية جوهرية لا يسمح لسواها بمشاغلته عن الغاية الأولى : أنا عربي .

تلك الهوية الوجود (الاسم) هي مايسبب الغضب ، فهي - إذا - موضع الخصام أمام الآخر . وهو آخر ظل غائبا عن النص وظل محروما من النطق . وهذا الصمت الذي يطبق على (الآخر) هو سمة دلالية تسود في شعر محمود درويش وتمتد إلى نصه (عابرون في كلام عابر) ، وهذه هي صفة المشكلة الوحيدة ما بين النصين ، حيث صار الفعل حقا

خاصا بالذات الشاعرة ومماثلة من حسّ شمولي ، يتساوى في ذلك الواقع الفعلي مع الواقع الممكن .

وحيثما أقول الواقع الفعلي فإنني أعني به نص (الهوية) وما يجسده من دلالات ، وهي دلالات تقف عند حدّ (الوجود الأولي) المقتن بكونه (عربيا) وإذا تحقق له هذا الاسم فتلك غاية النص ونهايته أيضا .

أما النص الآخر (عابرون في كلام عابر) فإنه يتجاوز ذلك الحد الأولي ليتحول إلى مستوى اختراقي يداهم الآخر / المخاطب ، ويعبره من الوجود (احملوا أسماءكم وانصرفوا) . ونحن لو قرأنا هذه الجملة في مقابل تداعياتها من النص الهوية كالتالي :



حيث نجد الاختلاف والمفارقة بين جملة (أنا عربي) وهي جملة محايدة لأن ثباتها لا يستوجب نفي نقيضها من الوجود الفعلي ، ويكفي أن يكون المقابل ليس عربيا ، ولكنه سيظل بوجود جوهري مماثل ، أما جملة (احملوا أسماءكم وانصرفوا) فهي تطور دلالي يتجاوز جملة (أنا اسم بلا لقب) حيث الأخيرة تقرر وعيا فعليا بينما السابقة تشير إلى وعي ممكن .

ويكون التناظر بين الجملتين قائما على تحويل الهوية من مجرد إثبات لها

وللاسم إلى اقتحام فاعل يصدر الأمر على المارين بالانصراف تحقيقاً للدلالة
المرور والعبور لأنهم منفصلون عن أسائهم (عن وجودهم) .

ويتعاضد مع ذلك مفارقة أخرى ماثلة بين جملة (فهل تغضب) التي
وردت ثلاث مرات في نص (بطاقة هوية) ورديفتها جملة (فهل ترضيك
منزلي) ، وهي جمل تتحرك بحس الوعي الفعلي ، وبين جملة (ولنا
ماليس يرضيكم هنا) التي وردت في عدد مماثل (ثلاث مرات) في قصيدة
(عابرون في كلام عابر) وهي تحول يتجاوز فعلية الوعي إلى اختراق
الآخر وتحديه بدلا من استرضائه مما يؤسس وعيا يمكننا بيشر النص
بتحقيقه .

ويأتي التحول الأشد فيما بين صوتيمي النص ، وهما :

- ١ - سجل أنا عربي (خمس مرات) .
- ٢ - أيها المارون بين الكلمات العابرة (ست مرات) .

وكل واحدة منهما هي الأساس الدلالي والنواة النصوصية (=
الصوتيم) لنصها الواردة فيه - كما سبق أن ذكرنا - ومن هنا فإن المفارقة
بينهما هي بمثابة التمايز فيما بين النصين .

وأجل درجات الافتراق هو في قدرة الجملة الثانية على استدعاء نقيض
حي يتحرك داخل النص ويؤسس دلالة اختراقية تعاكس الدلالة الماثلة
وتؤزمها تازيما يقوِّي النص ويفتح انعكاساته الإيحائية وهذا ما ولد جمل
الملكية في النص - كما ذكرنا أعلاه - .

كما أن الجملة الثانية اعتمدت على إشارات تمعن في سلب سمات

الوجود عن الآخر / المخاطب ، من خلال تحديده بالمرور وتحديد وجوده اللغوي بالعبور . بينما الجملة رقم (١) لا تمس سوى الذات بأن تسعى إلى إثباتها : أما السيادة فتظل للآخر لأنه هو الذي يسجل أى أنه هو مالك اللغة .

ذاك سياق متداخل ما بين النصين يفضي بنا إلى التعرف على شاعرية قصيدة (عابرون في كلام عابر) من خلال علاقتها بسياقها الخاص الذي أخذنا مثالا له قصيدة (بطاقة هوية) لأن القصيدتين تتحركان في قطب دلالي متداخل ، مما يجعل فهم الأخيرة مرتبطا بالأولى ومنعكسا عليها .
وبما أن الشعر هو في أثره وليس في مضامينه فإننا سنقف عند (أثر) النص في المقالة القادمة - إن شاء الله - .

النص واللغة

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا عن حالات الشعر عند العرب (وكانت العرب تقول الشعر لوجهين : أحدهما ليؤثر في النفس أمرا من الأمور تعد به نحو فعل أو انفعال ، والثاني للمعجب فقط) .

إن ابن سينا يشير هنا إلى وظيفتين من وظائف اللغة إحداهما الوظيفة التنبيهية ، وذلك حينما تكون وجهة الرسالة اللغوية تهدف إلى إحداث الفعل والانفعال لدى المتلقي بأن تؤثر في نفسه وتحركها نحو ما بعد النص وهو : الفعل . أما الأخرى فهي وظيفة جمالية غايتها المعجب حسب عبارة الشيخ الرئيس ، وهي مانسميه في مصطلحاتنا المعاصرة بالشاعرية حيث تركز الرسالة على نفسها وتفضي بذلك إلى المستوى الجمالي الشعري للغة حسب مقولات ياكوبسون .

أقول هذا قاصدا ربط موضوعاتي ببعضها حيث نلامس ما أشرنا إليه من قبل من كون قصيدة محمود درويش (عابرون في كلام عابر) تتحرك باتجاه الوظيفة التنبيهية في اللغة ، وهي ما يعادل الوجه الأول في مقولة ابن سينا لأن هذه القصيدة تسعى لتؤثر (في النفس أمرا من الأمور تعد به نحو

فعل او انفعال) . ولهذا فإنها تتوجه إلى المخاطب (المنادى) بكم محتشد
من أفعال الأمر التي تحاصر هذا المخاطب وتجبره على الفعل والانفعال :

أيها المارون بين الكلمات العابرة
احملوا أسماءكم وانصرفوا
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا
واسرقوا ماشئتم من صور كي تعرفوا
إنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء .

هذه الأوامر : احملاوا / انصرفوا / اسحبوا / انصرفوا / اسرقوا / .
خمس أوامر متتابعة تتفجر داخل النص لتلغي كل أنواع الأفعال الأخرى ،
حتى إذا جاء الفعل المضارع (تعرفوا) في البيت الرابع لاحقه البيت
الخامس لكي يلغيه ويلغي مفعوله :

كي تعرفوا
أنكم لن تعرفوا

إنها معرفة تكشف عن اللا معرفة ، مما يجعل الفعل يلغي نفسه فلا
يكون للمضارع من أثر سوى إلغاء الأثر ، ومن هنا فإن الأمر بأفعاله
الخمس هو صاحب السيادة والسلطان وهو صانع الأثر ومحدث الفعل
والانفعال ولذا سادت أفعال الأمر في سائر مقاطع النص . . ومن شأن
فعل الأمر أن يجعل الفاعل مفعولا به ، لأن الفاعل فيه يتفقد إرادة المتكلم

ومن هنا فإن الفعل والانفعال الناتجين عن النص هما إرادة الشاعر ينفذها الآخر .

وهذا هو المدخل الذي به نستطيع قراءة قصيدة درويش هذه من حيث ما أحدثته من أثر على الاسرائيليين (العبرانيين / العبريين) الذين بادروا إلى ترجمة هذه القصيدة أربع ترجمات على الأقل ونشرتها الصحف الاسرائيلية ، فثارت بعد ذلك ثائرة الاسرائيليين وتوالى المقالات والمعارضات ضد القصيدة وتكلم إسحاق شامير بانفعال متشنج في الكنيست وهاجم القصيدة والشاعر والفلسطينيين ومنظمة التحرير ، وتابعه في ذلك كتاب مشهورون من كتابهم مثل يائيل لوتان وعاموس كنعان مثلما ضج ضجيج زعماء كافة أحزاب إسرائيل المعتدل منها والمتطرف ، ومن الصفات التي أسبغوها على القصيدة ما قاله لوتان :

(إنها قصيدة مجنونة ، خالية من الذكاء ومغيفة) . ولقد رد عاموس كنعان على القصيدة بتشجيع وفزع مؤكداً على (إشارات) محمود درويش حول الأسماء والقمع ولم ينس كاتب آخر أن يشير إلى المدافع والصواريخ وأنها جاهزة لضرب كل القصائد والمتظاهرين .

وأخيراً أصدر الأديب المغربي عبد اللطيف اللعبي كتاباً بالفرنسية عن هذه القصيدة وقضيتها عنوانه (محمود درويش : فلسطين وطني : قضية قصيدة) - هذه المعلومات عن عبده وازن ، مجلة الناقد ص ٥٩ العدد الخامس نوفمبر ١٩٨٨م -

ولقد ذكرت هذه المعلومات لأنها تصور لنا (الأثر) الذي فعله هذا النص ، وهو أثر انفعالي تساوت فيه درجات الانفعال من حيث بلوغها

أقصى الغايات لدى كل المستقبلين ، وذلك بالرغم من اختلاف الترجمات وتنوعها مستوى وأداء وتعددا ولكن الأثر ظل واحدا : قويا وفعلا ، وهذا مانعني بقولنا إن النص هو بأثره وليس بمضمونه ، ومدخلنا لقراءة أى نص أدبي يجب ان يكون من خلال ذلك الأثر الذي به يتحقق (الفعل والانفعال) أو (العجب) حسب تعبير الشيخ الرئيس .

والأثر يتحقق من خلال نظرنا إلى النص على أنها توظيف للغة توظيفا نوعيا كيفيا بما أنها في حالة الإنشاء النصوسي تمثل دالا حيا متحركا يفعل فعله لأنه ذلك الدال وليس لأنه مدلول مضموني محدد .

من هنا لا يجوز لنا - نقديا - أن نحكم على قصيدة محمود درويش هذه من خلال وضعها في ترجمة ما . ذلك لأن الترجمة هي بالضرورة تنازل متواتر عن مستويات النص الأدبي مثلما هي تجريد لها من حالاتها اللغوية الإبداعية . ولقد أفنى لنا شيخنا أبو عثمان الجاحظ باستحالة ترجمة الشعر ، وقال الإيطاليون إن كل مترجم خائن ، وذلك لأن الترجمة إذا التزمت بشروط الأصل فإنها ستهبط بمستوى أدبية المنقول ، أما لو غَضَّ المترجم طرفه عن شروط النص فإنه قد يأتي بنصوص راقية أدبيا لكنها تختلف عن الأصل وتفارقه ، كما يقال عن ترجمة فتر جبرالد التي أصبحت أرقى من الأصل لكنها لا تمثله - حسبما يذكر العارفون باللغتين الانجليزية والفارسية - ومثل ذلك يقال عن ترجمة أحمد رامي للخيّام من حيث جمالها ورقبها مع بعدها عن الأصل . وهذا كله عمل مفيد وممتع ولكنه خيانة حسب تعبير الطليان . وفي مفهوم النقد يكون الحكم على النص من خلال التراجم هو من باب سوء التصور المفضي إلى سوء الحكم .

ولكي نتصور المسألة بجلاء فلنقرأ ونترجم المقطع التالي :

So that he could tell me:

«my master is not at home»

for sure his master is at home

But he became a coward

when he realized I was pregnant

هذه خمسة أبيات أضع مقابلها العربي مترجما كالتالي :

لكي يستطيع أن يقول لي :

« مولاي ليس في المنزل »

قطعا إن مولاه في المنزل

لكنه أصبح جبانا

حينما أدرك أنني كنت حاملا .

هذه ترجمة مغلصة للنص الانجليزي أعرضها في مقابلة مع أبيات نزار

قباني التي يقول فيها :

ليقول لي :

« مولاي ليس هنا »

مولاه ألف هنا

لكنه جبنا

لما تأكد أنني حبل

وماذكرته من نص انجليزي ليس سوى ترجمة لقصيدة نزار قام بها استاذ جليل وعالم مشهود له بالعلم والمعرفة هو الدكتور منيح خوري وشاركه في مجمل العمل الدكتور حامد القار (Algar) والأخير مستشرق أسلم . وكلا الرجلين من جامعة كاليفورنيا - بيركلي . وعلمهما بالعربية والانجليزية ليس موضع سؤال . وقد نشرا معا مختارات من الشعر العربي الحديث مترجما عام ١٩٧٤ نشرته جامعتها .

ولكن علمهما باللغتين لم يغن شيئا أمام أدبية النص . وذلك لأن أخطر ما في هذا المقطع هو كلمة (هنا) ثم تحولها إلى (ألف هنا) وماعدا ذلك فليس بذي بال مثل بال هذا التحول . ولو تأملنا النص لرأينا أن التأزم فيه هو في سؤال المكان « هنا » الذي ورد منفيا في البداية :

مولاي ليس هنا .

وهي جملة اعتراضية تحمل ضميرا دخيلا على النص لأن المتكلم فيها ليس هو المتكلم في النص مما يهدد بدخول صوت جديد يلغي صوت المتكلم الأصلي وينفيه : ولكن الصوت الأصلي يبادر صارخا :

مولاه ألف هنا .

وبذلك يعود الصوت مسيطرا وقويا ومتوترا وهو توتر يبلغ حدّ التجاوز والانكسار فتصبح الـ (هنا) ألفا . والعادة اللغوية في الظرف أنه لا يُعد ولا يتعدد ، ولكن هذا النص يكسر القاعدة ويفجر لحظة التوتر ويؤزم الدلالة منذ أن انحرف عن كل ماهو منتظر ومفهوم . وهذا التغير والانحراف هو سر حيوية هذا المقطع وانفعاليته المتفجرة ، وكأن النص

يصرخ في وجه القاريء مما يجعل القاريء أيضا يصرخ منفعلًا بالنص مع
هذه الجملة الصارخة :

مولاه ألف هنا .

التي جاءت لكسر الجملة السابقة (مولاي ليس هنا) . وحاولت
إحلال الإثبات محل النفي . والعادة أن النفي أقوى وأبلغ لاسيما أنه هنا
هو السابق وإحساس الشاعر بضعف الإثبات أمام النفي هو ما جعله يعزز
الجملة بهذا الهول العددي (ألف هنا) لكي تقوى على مكافحة جملة النفي
وتجاوزها . وهذا هو سر جمال هذا المقطع . ولكن الترجمة لم تدرك ذلك
ولم تقف عنده ، بل إنها ألغت كلمة (هنا) وأحلت محلها كلمة منزل ،
فأضاعت بذلك جمال النص وقتلت فاعليته . ولنتقارن الآن بين ماهو في
الأصل وماهو (في) الترجمة :

« مولاي ليس هنا »

مولاه ألف هنا

...

...

مولاي ليس في المنزل
قطعا إن مولاه في المنزل

شتان ما بين النصين . على أن الفارق ليس في المضمون ، ولا ريب أن
المضمون واحد ، وهذا ما خدع المترجمين ، وإنما الفارق هو في العلاقة
ما بين الدال والأثر ، وهي علاقة تختلف عن تلك التي تقوم ما بين الدال

والمدلول . ذاك لأن الأخيرة تتحقق في أى مجموعة كلمات تعطي نفس المعاني المقصودة ، وهذه على لغة التوصيل والإبلاغ التي يكون المدلول فيها هو المقصود ، ويكون الدال وسيلة لبلوغ تلك الغاية . وكلمات مثل (مكة) و (بكة) و (أم القرى) يقصد بها موضع واحد ، ومن هنا فإن واحدة منهن تكفي عن مرادفاتنا لتحقيق العلاقة ما بين الدال والمدلول وإحداث الإبلاغ .

أما في حالة قصدنا للعلاقة بين الدال والأثر فإن كلمة (مكة) لا تغني عن كلمة (أم القرى) لأن لكل واحدة منها أثرا يختلف عن الأخرى . ولسوف نجانب الصواب لو وضعنا إحداهما موضع أختها وطلبنا الأثر ذاته دون تغيير .

هذا هو ما جعل ترجمة خوري والقار مجانبة للصواب لأنها تطلب نفس الأثر من خلال دوال مختلفة ، وهو شيء غير ممكن لأن كلمة (هنا) وكلمة (ألف هنا) تولد أثرا يختلف عن ذلك الذي تنتجه كلمة (منزل) خاصة أنها كررا الكلمة من دون تحولات ، مع أنها في الأصل قائمة على التحول والانحراف .

هذا يجعلني أخلص إلى القول إن الترجمة ليست سوى تفسير فردي للنص ، وهي بدا تمثل قراءة واحدة من مجموعة قراءات ممكنة ، وحينما نترجم فإننا لا نملك أن نقدم غير احتمال قرائي واحد لا يرتبط بالأصل إلا من خلال هذا الاحتمال المفرد . وهذه هي العلاقة الوحيدة ما بين النصين الأصل والمترجم ثم يفترق كل واحد منهما عن الآخر - بعد ذلك - ليؤسس لنفسه احتمالات قرائية أخرى متباينة ، وقد يحمل النص المترجم ، بل إنه

سيحمل حتما احتمالات قرائية لا تمت إلى النص الأصلي بصلة . ولو جربنا ذلك على النصوص المترجمة وقارنا بين الأبعاد القرائية ودلالاتها فيما بين الأصول والمنقولات ثم مفارقاتها لوجدنا شيئا يذهلنا من شدة تباعده وتباينه بناء على اختلاف العلاقة ما بين الدال والأثر - كما قلنا - .

ومن هنا فإنه لا يجوز لنا أبدا أن نحكم على قصيدة محمود درويش هذه من خلال ترجمتنا لها ولكن الحكم ينطلق من خلال (أثرها) في نفس متلقيها . ولا ريب أن القصيدة ذات أثر بالغ يشهد عليه مانقلناه من ردود إسرائيلية عليها . وهي ردود كانت تمثل استجابة قرائية لما هو منقول إليهم من تلك القصيدة . والنص العبري لها يحمل إشارات ذات دلالات مؤثرة على الاسرائيليين بدليل تلك الردود . ولا ريب أن الشاعر كان مندفعاً نحو هذه الإشارات التي تنشأت في نصه لتكون دوال تحمل طاقة تنبيهية عالية تؤثر في نفس المتلقي نحو فعل وانفعال غير محدودين . ويكفيها شاعرياً أنها قصيدة قادرة على كل هذا الفعل وأن إشاريتها أبلغ من إخباريتها . أو فلنقل إن (أثرها) أقوى من مضمونها . وكفى .

ملاحظة أولى :

لم ألم الذين اشتكوا من عدم وضوح مقالتي السالفة (من الفعلي إلى الممكن) ولم أكن من جناة ذلك - علم الله - ولكن المقالة نزلت في الجريدة مثقلة بأخطاء لم تكن من صنع يدي منها أن كلمتي (عربي) و (غربي) تبادلتا الموقع مرارا . ومنها أن أسطرا سقطت . ومنها تحريفات نحوية لم تكن في المسودة . ولا أقول إلا ساحك الله يا (صفيح الرياض) وكأني بالمساجلة بيننا قديمة منذ أزمان يوم حليلة ، أقصد منذ أيام (انتهت) تلك

الأسطورة الجميلة التي صنعها الصفييف وتركني أجني ثمارها منذ ذلك
الحين . ولعل هذا يدخلني الآن في هدنة مع الصفييف العزيز .

ملاحظة ثانية :

حينما أفرغ من الحديث من قصيدة محمود درويش سوف أقف بعض
وقفات مع الدكتور سعد البازعي - إن شاء الله - وأقول للدكتور : لك
ماتريد حبا وكرامة .

حينما كانت اللغة تتكلم

هناك جملة ترد كثيرا وتردد على لسان (قلم) أبي العباس المبرد وغيره من أسلافنا يحلون فيها إلى تصور شعبي قديم يرمي في بعده الخيالي إلى إسباغ (اللغة) على الأشياء ، ويصنعون بذلك حوارا متخيلا يجعل غير الناطق ناطقا فيقولون قال الضب وقال الحجر وقالت الشجرة وذلك : (أيام كانت الأشياء تتكلم) .

هذه هي جملة المبرد ينقلها عن الأعراب وتخيلاتهم عن الأشياء . وليست هذه الجملة تعبيرا مجازيا ، ولا يمكن أن نأخذها هذا المأخذ لأن تحويلها إلى (المجاز) يلغي فعلها ويلغي الحكاية منها ويقتل حسها الخيالي . ولكنها جملة ذات منطق حقيقي (غير مجازي) وإن كانت تقوم على خيال خالص .

ولا ريب أن التصور البشري العام يقوم على هذه الفكرة المتخيلة التي تفترض أن الأشياء في القديم الغابر كانت تتكلم . ولم يكن الأمر خاصا بالأعراب الأوائل وحدهم ولكنه أمر عام ومستمر ولقد كنا نمارسه نحن حينما كنا أطفالا صغارا نبتكر الحكايات عن الجمادات ونجعل الجمادات تتكلم

وكنا نردد جملة مماثلة لتلك الواردة عند المبرد فنقول : (قالت الحصاة - يوم كل شيء يحكي -) ننطقها بالعامية ونصنع بعدها الحكاية المتخيلة .

وهذا حسنٌ عمومي ينطلق من مفهوم أن اللغة ضرورة وجودية لا يتحقق للأشياء وجود إلا باستخدامها والتفاعل بواسطتها . وهذا يمنح علاقتنا مع اللغة بعدا نفسيا يجعلنا نشعر أنها ضرورية لكل فعل مطلوب سواء كان هذا الفعل ضربا من الخيال أم كان ضربا من صناعة الحياة والتاريخ . ولكم كنا نشعر بشيء من الأمل يتحرك في نفوسنا حينما ظهرت علينا الأغنية الجميلة جمال السلاح التي تتردد فيها جملة : (الأرض تتكلم عربي) ، حيث جاءت هذه الأغنية بعد هزيمة ٦٧ وكانت تضرب في داخلنا وكأنها تحاول إحياء علاقاتنا مع الأشياء التي تخصنا تاريخيا وحضاريا فتجعلها تتكلم ، وتكلم بالعربي ليتحقق لها الانتماء الصحيح . وينتفش في نفوسنا حس صغير بالأمل في أن تتحقق هذه الجملة فتكلم أرض العرب بلغة العرب .

وإن كنت أقول هنا إن الأشياء تتكلم حسب قدرتنا على الخيال الحي الذي يقوى على إنطاقها ، فإنني أوحى إلى نفسي بسؤال يفرضه هذا التصور وهو : هل اللغة نفسها تتكلم ؟ ومعنى هذا السؤال هو أن اللغة قد يحدث أن تعجز عن الكلام !! .

هذا افتراض أعنيه وأقصده ، وأزعم به أن لغتنا قد أفضى بها الأمر إلى العجز عن الكلام في مراحلها المتأخرة . ولو شئت برهانا على ذلك لوجدته ماثلا في كلمة واحدة جربناها في تاريخنا مرتين واستطاعت في الأولى أن تتكلم وعجزت في الثانية عن الكلام . تلك هي هذه : وامعتصماه .

هذه كلمة قالتها امرأة عربية بسيطة وأطلقتها في قرية من قرى الخلافة العباسية لم تكن ذات بال إذا قيس إلى مملكة الإسلام في ذلك الوقت ، ولم تكن المرأة ذات وجاهة معروفة مما يعني أن الفتاة والقرية لم يكونا على شأن عظيم ولكن الصرخة هي العظيمة ، مما جعلها تسري من تخوم حدودنا الشمالية مع الروم إلى عاصمة خلافتنا في بغداد ، فحطت في بغداد خطوط الزلازل ورجتها رجاً حولها من مدينة البذخ والترف والدعة إلى مدينة للجهاد والاستشهاد ، فانقلبت بغداد في عشية واحدة من سهر المتعة إلى سهر الحمية ، وطار المعتصم بجيشه المؤمن متحديا كل دواعي المتعة والرفاهية وكل مشبطات الهمم من دجل المنجمين وإحباطات المنافقين ، وتكلمت اللغة وجعلت كل شيء يتكلم من بغداد في العراق إلى عمورية في الأناضول . ويصرخ الجميع وامعتصماه فيكون المجد ويكون التاريخ وتبتهج الأمة كلها ، ويقوم شاعرها بتسجيل الحدث في قصيدة أبي تمام الخالدة .

هذه هي المرة الأولى اني جربنا فيها تلك الكلمة فوجدناها تتكلم وتعمل مما يعني أن لغتنا ذلك الحين كانت تتكلم .
أما المرة الثانية فإني أترك الشاعر عمر أبوريثة يبلغنا عنها نسمعه يقول :

رَبِّ وَا مَعْتَصِمَاهِ انْطَلَقَتْ
مَلءُ أَفْوَاهِ الْبَنَاتِ الْيَتِمِ
لَامَسَتْ أَسْمَاعَهُمْ لَكْنَهَا
لَمْ تَلَامَسْ نَخْوَةَ الْمَعْتَصِمِ

تعتل فعل الكلمة فتعتلت اللغة وعجزت عن الكلام ، وكل شيء لا يفضي إلى فعل يصبح معطلا وبلا وظيفة ، ولو آلت حال العضو الحي إلى وضع تتوقف معه وظيفته فإنه ينتهي إلى الزوال ، كما هي القاعدة العلمية الأحيائية المعروفة . وهذه حال تهددنا وتمس أعلى ممتلكاتنا وأعضائنا الحيوية وهي لغتنا التي نريد من الأشياء أن تتكلمها حتى الأرض والحجر ويتامى الأمة وعواجزها . ولقد مرّ بنا دهر ونحن على حال الفاقد للغة لأنه يفقد الفعل ، ولا ريب أن سنة الله في عباده تقوم على قاعدة هي أن الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - كما ورد في القرآن الكريم - ومازلنا نعيش في الهزيمة ونجرتها حتى قبض الله لنا حجرا من أرضنا صار يتكلم ، وانتفض هذا الحجر وصرخ بأعلى فعله : واقدساه فتحولت الأشياء كلها معه وأصبحت تتكلم فالأرض تكلمت بالعربي (والأمم المتحدة) تكلمت في جنيف بلغة ذلك الحجر ، والمعجم الانجليزي^(١) انتفض مع الحجر العربي ، حتى الشعر ، نعم حتى الشعر غادر كل ترفه ومتعه وجمالياته لينضم إلى لغة الحجر تماما مثلما تحولت بغداد المعتصم من دنيا الرفاه إلى دنيا الجهاد ، يتحول الشعر من دنيا إلى أخرى ليشارك بالفعل وليسعى لجعل اللغة تتكلم . وما فعله الحجر هو تغيير مما في نفوسنا لكي يغير الله حالنا من الهزيمة إلى النصر . ولعل الله أن يجعل من هذا الحجر المبارك بداية زمن جديد يدخلنا في عصر تتكلم فيه لغتنا مثلما كانت تتكلم من قبل ، وننتقل حينئذ إلى زمن الفعل والتحضر فنكون بعد أن أمهكنا الاستلاب ولعبت بنا رياح المستعمر كل ملعب .

(١) أشير هنا إلى مانقلته وكالات الأنباء من أن كلمة (انتفاضة) بلفظها العربي قد دخلت في المعجم الانجليزي الذي صدر عن (لونجمان) في بريطانيا مؤخرا (١٩٨٩ - ١٩٩٠ م) .

إننا في زمن التغيير وفي لحظة الانتقال ولا بد للأشياء أن تتغير لكي تتكلم لكي تفعل ، ولقد بدأ الحجر مشروع التغيير وجاراه الشعر واللغة في بعض مناحيهما ، والمطلوب الآن هو أن يتولى كل واحد منا تغيير القبح الذي كان فيه وليضع مكانه الجمال المنتظر بدءاً من السلاح الأجل وهو اللغة - لغة الفعل والأثر . بعد أن تحقق لنا الوقوف على أبلغ انزياح إبداعى في عصرنا هذا وهو الانتفاضة المباركة :

وعلى الشاعر أخيراً

أن يكره من الأشياء كثيراً

فلا يدع من القبح فتيلاً

يحيا إلى جوار الجميل

- كما يقول جوته -

إن (لنا في أرضنا مانع عمل) ، لأنها أرض تتكلم بالعربي ولم يعد العربي عاجزاً عن النطق . لقد تعلم اللغة مرة أخرى حينما دخل في مدرسة الحجر فانطلق لسانه من جديد وصار له (صوت) مسموع في كل ديار العالم من نيويورك إلى جنيف إلى موسكو ، ولن يخمد هذا الصوت لأنه يتحرك بلغة تتكلم مثل لغة عجوز عمورية . ولقد عاد المعتصم إلينا بعد غياب طويل طويل ، ولكنه ظهر على هيئة حجر فلسطيني غير فينا كل شيء حتى قصائد محمود درويش التي تنازلت عن أجمل ملابسها وكرافتاتها الباريسية وعادت إلى العمامة العربية تضعها فوق الهام تحية للحجر .

ثقافة الأسئلة

كنت منهمكا بالكتابة حول المسائل التي أثارها الدكتور البازعي في مقابلته في جريدة الرياض ، وهي مقابلة وصفها عدد من الزملاء بأنها (مفاجأة) . ولا بد أن الدكتور قد رغب بالتهادي بلعبة المفاجأة هذه فراح يكتب تعقيبا يتابع فيه ماسبق أن قاله من قبل ، دون أن يتركني أفرغ من مناقشة قضايا مقابلته تلك ، وهي قضايا أراها مهمة ولا بد من الوقوف عندها حتى وإن بُعد بها العهد . ولكنني - اليوم - أبادر بالدخول في مسائل التعقيب ، على أن أعود - مرة أخرى - إلى ما كنت فيه من شأن .

ولقد وقفت أمام تعقيب الدكتور موقف الاختيار بين مسلكين أحدهما حسن والآخر سييء . أحدهما يكون بأن أحسن الظن بالدكتور وأسئلته ، والآخر هو أن أسبيء الظن . ولقد وجدت نفسي تميل إلى الأول منها إذ إنه طريق يعين على البناء والعطاء بدلا من الهدم والاصطراع اصطراعا يسعى إلى حفظ ماء الوجه أكثر من سعيه إلى الحق . ولقد دافعت سوء الظن مدافعة حافظت معها على صورة الدكتور في نفسي لكي تكون صورة الباحث عن المعرفة والمعين على هذا البحث ، ولهذا عاملت

أسئلته معاملة صافية تستوحي فيها الرغبة في إعطائي فرصة لمخاطبة القاعدة المريضة من القراء مخاطبة تلقائية وبمبسطة . ولم يكن ذلك ميسورا لي في هذه الفترة لأن آرائني في هذه المسائل قد تم طرحها في أربعة كتب منشورة وموجودة بين أيدي الناس . ولم يكن من اللائق بي أن أشرع بالكتابة الصحفية في أمور قد أشبعتها نقاشا وتدقيقا في تلك الكتب .

كانت تلك فكري بالرغم من مشاهدتي لإناس كثيرين تتدفق الأسئلة على ألسنتهم أسرع من تدفق كلمات التحية والسلام حينما يلتقون بي . لقد كنت - ولا أزال - أرى أن الندوات المفتوحة واللقاءات المباشرة هي خير أداة لتوصيل الأفكار وإيضاح المواقف مع الإحالة إلى الكتب لتوكيد مايقال ، ولقد مارست هذا الدور كثيرا ووجدته ذا فوائد لا حصر لها . ولم يكن يخطر ببالي قط أنني سأقف في جريدة الرياض لأكتب حول مفهوماتي النظرية بعد أربع سنوات من صدور كتابي (الخطيئة والتكفير) وبعد سنتين من نشر كتابي (تشريح النص) . وفي هذا الأخير دراسة بعنوان : (لماذا النقد الألسني ؟ سؤال في نصوصية النص) فيه إجابة على أسئلة الدكتور كان من الممكن أن أحيل القاريء إليها وأستغني عن كتابة هذه المقالات التي قد تطول فتبلغ بي وبالقراء إلى شهر رمضان الكريم .

سأريح القراء وأرتاح لو أنني أحلتهم إلى تلك الدراسة . وهي دراسة كان سببها سؤال طرحه أحد زملاء في ندوة أقامها نادي الوحدة الرياضي بمكة المكرمة ، وكنت أنا والدكتور البازعي من المشاركين فيها . ولقد تعلق السؤال بنفسني مدة حتى أفضي إلى تلك الدراسة . وإن كان الدكتور قد حضر السؤال فلعله أيضا قد وقف على الإجابة ، وجيشئذ سأقول إن حسن ظني به يدفعني إلى الاعتقاد بأنه أراد أن يجريني إلى عالم الكتابة العريض عبر

الصحافة لكي أجعل (النظرية) تقترب من الناس أكثر ، ولكي نشيع مع الفهم النظري والتصور المفهوماتي والاصطلاحى بين قراء الأدب ، ونعيد الحياة لما هو في بطن الكتب .

وبين يدي الموضوع أقول إن من أهم المسائل الثقافية والعلمية وأخطرها هو (الأسئلة) . وحينما أقول ذلك فإنني أرمي إلى غاية أنبه فيها إلى مالأسئلة من أهمية مصيرية إذ إن السؤال هو الذي يقرر الإجابة ، ولأن الأمر كذلك فإن فن صناعة السؤال هو من أصعب فنون القول والمنطق ، وأنا أزعّم أن كثيرا من البلبلة الفكرية التي نعيشها في واقعنا العربي الفكري المعاصر هي بسبب أسئلة مهزوزة قادت إلى إجابات مصابة بمثل تلك الأسئلة . ولنعد إلى أية قضية عربية نشعر أنها قضية مهزوزة وسنجد ان الداء جاءها من (السؤال) وليس من الجواب مثل قضية العروبة والاسلام وقضية الدين والدولة وقضية الأصالة والمعاصرة . وهي قضايا تبدت في ثقافتنا المعاصرة وكأنها من المتعارضات المتناقضات ، وماهن كذلك ، ولكن الأسئلة هي التي أوقعتها في بركة التناقض منذ أن سمحنا بدخول (أم) في وسط هذه القضايا فنقول : الإسلام أم العروبة . . إلخ وتأتي الإجابة لتضع إحداها في نقيض الأخرى وتحديث بعد ذلك الطوام كل الطوام كما نعرف مما قد صار في بلاد العرب الأخرى ، وما يحدث عندنا اليوم من افتراض التناقض بين الأصالة والمعاصرة . ولقد لامس بعض المفكرين العرب هذه القضايا ووصفوها بأنها مقولات زائفة ، ولست أراها زائفة من داء فيها هي ، وإنما ذاك داء جاءها من الأسئلة الفاسدة .. وكلمة فاسدة من كلمات أفلاطون الذي قال لمن سأله : ما فائدة الفلسفة ؟ قال إن هذا سؤال فاسد .

وكلمة فاسدة من كلمات أفلاطون الذي قال لمن سأله : مافائدة الفلسفة ؟ قال إن هذا سؤال فاسد .

وأنا حينما أقول ذلك فإنني أشير إلى أن من ضروراتنا الثقافية المعاصرة هو أن نجيد صناعة الأسئلة ، وأن نحذر الوقوع في الأسئلة الفاسدة لكيلا تفسد مقولاتنا ويصيبها الزيف والتصدع . ولا ريب عندي أن ثقافة الأسئلة هي من الثقافات الغائبة عن فكرنا المعاصر ، بينما كانت هذه من أقوى مزايا الفقه الاسلامي (القديم) الذي كان يفترض - دائما - وجود صوت سائل يتحرك مع كل المسائل الفقهية مما أوجد إجابات نظرية لحالات غير موجودة فعليا ، وأدى إلى قيام علم (أصول الفقه) ليكون أسسا لتوجيه التصور وتنظيمه .

ومادمننا نحن نبحت في مسائل أدبية فلنحصر أنفسنا بهذا المجال ، ونقف عند سؤال أدبي مشهور ومنتشر ومع هذا فهو سؤال فاسد يقود إلى أجوبة زائفة ، ذاك هو قولهم : الفن للفن أم الفن للحياة .

وهذا سؤال تسرب إلى ثقافتنا المعاصرة وشاع فيها ، ولقد أتاننا من أوروبا وليس له وجود تقليدي عندنا ، بل إن مقولات أسلافنا هي ضد منطق هذا السؤال . ولو تأملنا نحن - اليوم - هذا السؤال لرأينا فساده ، لأنه من المحال أن نجد نصا يتخلص من الحياة تخلصا يقطع كل مناحي علاقاته بها . فالنص ليس إلا شيئا من أشياء الحياة ، ونحن نقول إن اللغة كائن حي مما يعني أن النص أيضا شيء حي ، فهو إذا حياة وليس نقيضا عكسيا لها .

وكذلك هو محال أن نجد نصا يخلو من الفن خلوا قاطعا بحيث ينشطر

منه ويستقل عنه استقلالاً يجعله ينتسب إلى الحياة دون الفن ، ولو حدث هذا فإن النص لن يكون (فنا للحياة) لأن الخالي من الفنية لا تصدق عليه صفتها على أنه لا وجود لنص لا فنية فيه . إن الفنية موجودة في كل نص وفي أى نص مهما بلغت سوقية القول وعموميته ، والفروق تحدث فقط بين فنية أصيلة هي من ابتكار القائل نفسه ، وأخرى منقولة او متوارثة لم تصدر عن المتكلم ولكنها تحدت إليه أو شاعت في مجتمعه حتى ولو قلنا كلمتي (أهلا وسهلا) وهما كلمتان مفعمتان بالفن وبالحياة . ولنا منها الحياة أما الفن فيهما فهو لقائلهما الأول التي صاغ فأبدع وجئنا بعده نقلد ونتابع ، مع بقاء الفن في محله من القول دون أن يلغيه تقليد أو تواتر .

وهذا معناه وجود الفن في القول مع وجود الحياة ، وعند ذلك يكون السؤال فاسداً لأن (الفن هو للفن وللحياة معا) وليس لأحدهما فقط من دون الأخرى حتى ولو درسنا الأدب دراسة بلاغية أو شكلانية بحثة فإن ذلك ضرب من الحياة لأنه يقوم على حركة وتفاعل وعلى فعل وأثر وعلاقات ذلك كله مع بعضه ، مما هو من صفات الكائن الحي الذي فيه (الحركة / والتفاعل / والفعل / والأثر) .

وهذا يستدعي منا أن نرفض سؤال (الفن للفن أم الفن للحياة) وحسب قول سدالمير : (إنك إذا لم تبحث في الفن إلا عن الفن فلن تجد فنا) - كما ينقل سامي الدروبي الذي ناقش هذه المسألة مناقشة مثرية في كتابه : علم النفس والأدب - . مثلما سبق أن تكلم فيها الناقد الانجليزي زيتشاردز ودقق القول في مقولة (الشعر للشعر) وهي مقولة لا تقف ضد الحياة ولا تشطر عنها ولكنها فقط تعطي النص نصوصيته دون إجحاف .

ولعلنا نكمل مقولة سدلاير ونتبعها : إنك إذا لم تشيع النص فنا فإنك لن تجد حياة ولا فنا . وماذا لك إلا من أن جماليات الأدب ليست سوى وجه من وجوه الحياة التي تتحرك بالخيال مثلما تعيش في الحقيقة . ومهما أغرق الفن بالخيال فإنه يعمن إغراقا بالحياة حسب عمقه الخيالي ، وإذا صَوَّر الأولون العنقاء على سجاد ملوكهم - كما يقول الجاحظ - فإنهم لا ينصرفون عن الحياة ، ولكنهم يحركونها في نفوس المشاهدين فيندفعون (بـ الأثر) وينفعلون به .

ومثلما نجد مقولات زائفة يعود زيفها إلى خلل في الأسئلة التي ولدتها فإننا أيضا نجد بلبلة واسعة من جراء استخدام بعض (الكلمات) استخداما غير اصطلاحى وذلك مثل كلمة (تناقض) ، وهي كلمة ما أكثر مانجدها في كتابات الناس في وقتنا هذا حيث ينادرون إلى وصف آراء غيرهم بالتناقض . ويطلقون هذه الكلمة / الحكم دون روية أو تبصر ، وهم حينها يطلقونها ينسون أن هذه الكلمة مصطلح منطقي حدده المناطقه وقيدوه بشروط وحدود مقننة ، وهذا تعريف الشيخ أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري المتوفي عام ٦٣٠هـ يقول فيه :

(التناقض : هو اختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته أن تكون إحداها صادقة والأخرى كاذبة) .

ولهذا الاختلاف شروط يذكرها الشيخ بقوله (ولا يتحقق ذلك إلا بعد اتفاقهما في الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والقوة والفعل والجزء والكل والشرط) .

هذه عشرة شروط لا بد من وجودها لكي نحكم على قضيتين بأنهما متناقضتان . والسؤال الآن هو هل نسعى نحن إلى التفكير في مصطلحاتنا قبل أن نطلقها ؟

لقد ترددت هذه الكلمة (تناقض) على لسان الدكتور البازعي ، وكانت هي السبب وراء أحكامه واستنتاجاته ، ولكنها جاءت خالية من شروطها المنطقية ومتجردة من صفتها الاصطلاحية .

والحق أن (التناقض) هنا حادث عند المُستقبل وليس عند المرسل ولسوف أوضح ذلك في المقالات الآتية - إن شاء الله - ولكني أقول هنا إن العبرة في النية والنوايا ومن بحث عن الوحدة والتهاusk وأرادهما فإنه سيجهدهما ، أما من بحث عن التفكك والشتات فسيجهدهما أيضا . لأن الأعمال بالنيات ، ولو بحثت عن صورة حية لما تفعله (النية) بصاحبها لوجدته في (عمال المطابع) ، وهم رجال مثلنا يملكون من العقول ماغلك ، ويمر عليهم أكثر مما يمر علينا يوميا كتب ومعلومات في الفلسفة والتاريخ والأدب والعقيدة والفقه ، ولكنهم مع ذلك لا يخرجون من كل هذا بظائل . والسبب هو أنهم يصدرون عن نية قاطعة في أن مايعملونه هو مهنة يكسبون منها العيش فقط ، ولم يضعوا في نواياهم مقصد التفقه والاستفادة العلمية . ولو فعلوا ذلك وأرادوا المعرفة بإزاء العمل لخرجوا بعلم وافر نغبطهم عليه .

وكذا حالي مع الدكتور البازعي الذي لم ينو إحسان فهمي ، وبديلا عن ذلك فقد نوى وأراد إساءة تفسير مداخلتي النظرية ، فجادت يده بأسئلة لم أشأ أن أقف عليها وقوفائماثل وقوفي عند جملة (الفن للفن أم الفن

للحياة) ، واكتفيت فقط بالجانب الحسن منها ، وهو السؤال المجمل عن كيفية قراءتي للنصوص ، ولسوف يتال الدكتور البازعي مني ما يريد ، ولسوف أقول له كيف أقرأ النص ، وعن ماذا أبحث في النص .

على أنني سأكسفي دائما بإيضاح نفسي وفكري ولن أتعرض لمقولات الدكتور وماأراه زللا فيها لأنني لست ممن يأخذ (بالمعادلة الصفرية) وهو التعبير الذي نقله إلينا صديقنا الدكتور بكر باقادر . تلك المعادلة السلبية التي ترى أن نجاح أحد الطرفين ، لا يكون إلا بفشل الآخر .

هذا مسلك لا أرتضيه لنفسي أولا . كما أنني لا يعني من هذا النقاش إلا أن أكون واضحا للجميع خاصة في هذه الأجواء التي نمر بها ونشعر بفداحتها مما يوجب علينا أن نبذل كميات كبيرة جدا من (حسن الظن) .

وإن كنت قد ألزمت نفسي بنفسني وكتبت عليها عدم الوقوف على شئون الآخر فإنني أسمح لها بمسألة واحدة ألقت النظر إليها دون أن أخوض فيها ، وهذه هي أنه من المستحيل المحال أن نقبس جملة واحدة من رولان بارت ونجعلها حكما قيميا عليه - كما فعل الدكتور البازعي - .

إن رولان بارت هو (رجل الفصول) كما يصفه جوناثان كولر . وهو من التنوع والتشكل والتحول بمنزلة لا يمكن لأحد أن يفهمه حق فهمه إلا بعد الوقوف على كامل إنتاجه ، ولقد أشرت إلى ذلك في (الخطيئة والتكفير) في مبحث (فارس النص) بما هو كاف .

وكذلك أقول إنني قد كتبت (الخطيئة والتكفير) قاصدا أن يكون كتابا وليس معجما . وما أعنيه هنا هو أن الكتاب يصمم على أن كل صفحة فيه هي نتيجة لما قبلها وفي الوقت ذاته هي مقدمة لما بعدها ، ولن يتسنى فهم

المسائل إلا بقراءة الكتاب (كله) . أما الوقوف عند بعض المسائل دون سائرها فهذا لن يسمح بفهم المقاصد فهما صحيحا . كما أن الصفحات الأولى من الفصل الأول ليست سوى مداخل جرى تفصيلها والعودة المتواترة إليها في الفصول اللاحقة . مثلما أن كتابي (تشريح النص) وكتابي (الموقف من الحداثة) هما أجزاء أخرى من مشروع واحد يشرح بعضه بعضا ويطور لاحقه ماسبقه من أفكار .

وفي الحلقة القادمة أشرع - إن شاء الله - في شرح نفسي وتصوراتي وسيكون كلامي موضوعيا ليس للدكتور شيء منه سوى إثارة السؤال .



للي يتكلم التقرب بالعربية

١ . النص / الجسد

يروى لنا أبو حيان التوحيدي حكاية وقعت في مجلس الأخفش ، وهي عن أعرابي وقف على الأخفش فسمع كلاما في النحو واللغة وما يدخل معها (فحار وعجب وأطرق ووسوس ، فقال له الأخفش : ماتسمع ياأخا العرب ؟ قال : أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا) .

تلك كانت حال فصيح أعرابي صدمته لغة الاصطلاح ، وأوحشه أن يرى اللغة تتكلم عن اللغة ، بعد أن كان يعرف أن اللغة تتكلم عن الناس والأشياء .

ولقد كنت أنا أمر على مثل هذه المواقف فلا أجدها تثير في نفسي وحشة ، وكنت استأنس دائما بموقف أبي تمام الذي تعامل مع هذه الحالة تعاملًا إسقاطيًا ذكيا فكان يقول : (لم لا تفهم مايقال ؟) جوابا على من قال له لم لا تقول مايفهم ؟ ! . . . ولعل عددا كبيرا منا قد استخدم جواب أبي تمام هذا في كل محفل مماثل . ولا ريب أن هذا الموقف ومايمثله هو

ما يجعلني شخصيا أميل إلى شرح تصوراتي في كتب أو في ندوات مفتوحة ، لأن هذا يسمح للكلام بأن يأخذ مداه من الشرح والإيضاح والتفصيل إلى حدود لا تقوى عليها الكتابة الصحفية . وهذا هو المأزق الذي أجد نفسي فيه وهو كيف يتسنى لي أن أخوض في مسائل نظرية دقيقة وأمارس الكلام في الكلام دون أن أحدث وحشة تشبه وحشة أعرابي الأخفش ؟ ! .

ولكي أخرج من المأزق فإنني رأيت أن أنظر في مشكلة ذلك الأعرابي فلعلي أجد بها حلا يعينني على تلافي تكرار الحالة . ولقد وجدت أن جملة الاعرابي تصف الداء وتقرح الدواء في الوقت ذاته ، فهو يقول قوله في ثلاث عبارات تحدد المشكلة : (أراكم تتكلمون بكلامنا / في كلامنا / بما ليس من كلامنا) . والعبارة الأخيرة تحدد الداء والدواء ذلك لأن المشكلة تكمن بما ليس من كلامنا . وهذا الذي هو (ليس من كلامنا) هو ما أرهق فهم الأعرابي ، ولو حدث أن جاء اصطلاح لا يفارق مألديه من كلام لسان عليه الأمر وتم حل المشكلة . وهذا هو الحل الذي وجدت نفسي تغريني به وهو أن أتكلم بلغة العرب في لغة العرب بما هو من لغة العرب ، أى أن أسعى لجعل النقد (يتكلم عربي) مثلما تكلمت أرض سيناء وأرض فلسطين . هذا هو مشروع هذه الحلقات ، مشروع نصوصي يتحرك بمصطلحات عربية وبمفاهيم عربية ، من أجل قراءة نصوص في اللغة ذاتها . والغاية هي مخاطبة أقوام من العرب يالفون لغتهم وما بها من حسن جمالي وحسن انضباطي ، ولكنهم يستوحشون من اللغة الخواجة وينفرون منها ، ولقد آن الأوان لنا في أن نجعل نقدا عربيا في اصطلاحه وإجراءاته مثلما هو عربي في موضوعه . وكما تقول العرب : (خير الكلام ما لم يجتجج معه إلى كلام) .

وأول خطوات الحديث هي قول الحاتمي في وصف النص : (من حُكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد من الآخر وبأينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخوّن محاسنه وتعفى معالم جماله) .

هذه صورة النص في تفكير الحاتمي ، إنه النص / الجسد الذي لا يتم له الحسن / والجمال إلا بالتركيب ، وهذا التركيب يقوم على (اتصال) العناصر التي تمثل أعضاء ذلك الجسد .

ويجب ألا نفعل عن كلمات ترددت في مقولة الحاتمي وهي ذات أبعاد اصطلاحية مهمة مثل التركيب / والجسم / والأعضاء / والحسن / والجمال / والاتصال . ويقابل ذلك : الانفصال والعاهة واليبوسة . مما يعني أن الحاتمي يفكر بالنص على أنه (بنية) حية تتكون من عناصر مختلفة كالنسيب والمدح والذم ، ولكن الاختلاف هذا يؤول إلى (ائتلاف) - حسب تعبير شيخنا عبدالقاهر الجرجاني - . وهذا التبادل الحي ما بين الاختلاف والائتلاف يفضي إلى التركيب لكي يكون النص الجسد ، وذلك لأن العناصر تلك هي في جوهرها أعضاء مختلفة لجسد واحد .

والحاتمي - هنا - لا يكتفي بوصف النص بأنه جسد حي فقط ، ولكنه أيضا يرمي إلى غاية أخرى لها قيمة اصطلاحية مماثلة ، ذاك أنه يقف على مفهوم وظيفي يجعل قيمة الشيء في وظيفته وليس في مجرد وجوده ، ولقد أشار إلى هذه المسألة الدكتور إحسان عباس في كتابه عن تاريخ النقد العربي وقال : (من الطريف أن الحاتمي إنما يهتدي إلى هذه الصورة

لينادي بوحدة موضوعات القصيدة ، لا موضوعها الواحد ، ناظرا إلى وظائف الأعضاء المختلفة لا إلى اشتراكها في طبيعة واحدة) .

تلك إذًا نظرة الحاتمي إلى النص على أنه (جسد حي مركب) وعلى أنه ذو قيمة (وظيفية) ، وهاتان نظرتان تكفيان - عندي - لتحقيق فعلية النص وحيويته ، ولكنني لا أريد الاكتفاء بهذه الوقفة الخاصة عند الحاتمي وحده ، بل أشير إلى أن مفهوم النص المركب والنص الجسد هو مفهوم عربي عريق في عروبه ونلمس ذلك لدى المبدعين أنفسهم ، وهذا أبو العباس عبدالله بن محمد الأنباري المسمى بالناشيء الأكبر ، يصف لنا النص / الجسد فيقول :

إنما الشعر ما تناسب في النظم -
وإن كان في الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضا
قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما
تتمنى لو لم يكن أن يكونا
فتناهى عن البيان إلى أن
كاد حسنا يبين لناظرينا
فكان الألفاظ فيه وجوه
والمعاني ركن فيه عيونا

وإذا قيل أطمع الناس طرا
وإذا ريم أعجز المعجزينا

هذا تصور تركيبى للشعر يرسمه الناشئ الأكبر الذي ربما أثر على الحاتمي في تمثل الصورة المركبة للنص ، لأن الناشئ الأكبر سابق على الحاتمي بمائة عام .

ولئن ظننا تداخل التصور بين هذين الأديبين فإننا أيضا نخطو خطوة أوسع لنقول إن أستاذ العربية الأول الخليل بن أحمد قد أسس تصورهُ للقصيدة على فهم تركيبى يقيم ماثلة تامة ما بين النص والبناء من خلال تشبيه القصيدة بالخيمة ، وفي ذلك يقول الخليل عن مشروعه العروضي : (رتب البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت الشعر) الأخيرة بفتح الشين أى الخيمة . ولذلك فقد صنع الخليل بن أحمد منظومته الاصطلاحية في علم العروض من مواد الخيمة ، وظلت القصيدة عنده (بناء) يقوم على التماسك والتساند ، وكل خلل يصيب هذا البناء يصبح عيبا بنويا يحدده الخليل بمصطلح يخصه كما نعرف في علم العروض . وفي ذلك قال القرطاجني يصف العلاقة ما بين القصيدة والخيمة : (ولما قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية ونظام أوزانها منزلة في إدراك السمع منزلة وضع البيوت وترتيباتها في إدراك البصر تأملوا البيوت فوجدوا لها كسورا وأركاناً وأقطارا وأعمدة . أسبابا وأوتادا ، فجعلوا الأجزاء التي تقوم منها أبنية البيوت مقام الكسور لبيوت الشعر) .

والقرطاجني هنا يحيل إلى أن هذا تصور عربي شمولي يسبق الفكر النقدي في تصوره البنائي للنص . كما أن القرطاجني يقيم في مقولاته هذه علاقة تراسل مابين السمع والبصر في استقباليهما للصورة التركيبية للبيت (البناء) وللقصيدة (البناء) مما ينم عن عقلية كلية (لا جزئية) وتصور بنيوي تركيبى يقيم العلاقات بين الأشياء المتباعدة ظاهريا ويؤسس الوحدة بين العناصر ليحقق (الائتلاف) بين (المختلفات) .

ومثلما بنى الخليل تصوره للشعر بناء تركيبيا على علاقة ائتلاف مابين النص والخيمة ، مستندا بذلك على تصور عربي شمولي ، فإن ثعلب العلامة اللغوي لا يخرج عن حقيقة ذلك التصور التركيبى ، ولعله أول من ارتقى بفكرة التركيب إلى مستواها الحي حيث أقام التماثل مابين النص والفرس ، ومنح الشعر صفات الفرس مثل الأغر والمجمل . وهذه كلها ثقافة نصوبية حية ظلت تتنامى لدى الإنسان العربي مبدعا ولغويا ومنظرا ، وكانت قبل ذلك موروثا جماعيا للأمة التي ظلت تنظر إلى لغتها على أنها كائن حي وفاعل ، وليست نصوص الأدب في هذه اللغة إلا كائنات حيوية مركبة تركيب الجسد أو هي جسد مركب حي . وإذا كانت تلك نظرة أسلافنا فإننا لا نملك نحن إلا أن ننظر إلى النص على أنه (جسد حي مركب) وفي الحلقة القادمة نقول كيف نتعامل مع هذا الجسد وكيف نستقبله .

هامش :

كان من المستحسن أن أقف في هذا الشأن على أفكار كولدرج ورولان

بارت وكلاهما ذوا تصورات تفيد في مفهوم (النص / الجسد) ولكنني
اكتفيت بما في تراثنا لأسبقيته اولا ، ولأنه أولى بالوقوف مادمنا نتكلم
بكلام العرب في كلام العرب بما هو من كلام العرب . في حين يبقى
كولردج ذا مرجعية فلسفية ألمانية في تصوراته مع تطبيقاتها على لغته وأدبه
الانجليزي ، ويظل بارت فرنسي اللغة والتطبيق ، وهذا لا ينفي أن
عمومية الفكرة أقوى من خصوصيتها .

تشرح النص

في المقالة السابقة وقفنا على صورة (النص) عند العرب على أنه (جسد حي مركب) وعلى أنه ذو قيمة (وظيفية) تتجاوز وجوده الجوهرى إلى وجود أعلى وأشمل . وسنقف اليوم عند جسدية النص وصفته التركيبية الحية .

والجسد يقتضي وجود أعضاء حية تتلاحم مع بعضها لأداء وظائف تختلف كل وظيفة منها باختلاف العضو منتج الوظيفة ، وقيمة كل عضو هي فيما يصنعه من هذه الوظائف . وإذا تعطل العضو عن أداء وظيفته المناطة به فإنه يصبح عضوا فاسدا مما يعني أن العضو هو بوظيفته وليس بمجرد وجوده . والعطل الوظيفي لا يفسد العضو المعطل فقط ولكنه أيضا يغادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم الجمال فيه - حسب عبارة الحائمي - .

وكما أن الجسد الإنساني يتكون من أعضاء متفاوتة القيمة وفيها ماهو أساسي وذو وظيفة مصيرية ومنها ماهو أقل أهمية وإن كان ذا وظيفة متميزة ، فإن في النص أيضا أعضاء ذات قيم متفاوتة في أهميتها وحساسية

وجودها (وكما أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا
فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) - كما ورد في الحديث الشريف -
فإننا نجد في النص مضغة تشابه مضغة القلب في الجسد وهي مانسميه
بالصوتيم (انظر الخطيئة والتكفير ص ٣٣ ومابعدا) . وهي نواة النص
ودلالته الأساسية وتتكون من (بنية) صغرى ، وأقول صغرى تميزا لها
عن البنية الكلية التي هي النص بمجمله . وهذه المضغة / البنية (=
الصوتيم) هي مايقوم عليه النص إنشاء ودلالة وقد ينشأ النص عن هذه
البنية ويتولد منها أو ربما يفضي إليها ويتجه نحوها . وتكون الأعضاء
الأخرى في النص مماثلة لأعضاء الإنسان ماخلا القلب فهي مهمة وأساسية
ولكنها لا تبلغ أهمية (القلب) تلك المضغة التي تقرر صلاح الجسد أو
فساده . على أن فساد أحد الأعضاء يشوه جمال الجسد واكتماله ، وكذلك
فإن فساد أحد عناصر النص يشوه النص ويعيب جماليته . وتتبدى صورة
ذلك في المثال الوارد في الحديث الشريف : (مثل المؤمنين في توادهم
وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر
الجسد بالسهر والحمى) . والمجتمع المؤمن في هذا الحديث هو جسد حي
مركب تركيبا عضويا متفاعلا ، ولذا فإن (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد
بعضه بعضا) كما جاء في حديث آخر . وهذا البنيان المشدود شدا عضويا
هو مايجعل المجتمع جسدا حيا مركبا . دام المجتمع كذلك فإن النص
الذي يمثل هذه البنية الاجتماعية لابد أن يكون مثلها متماسكا وحيا
ومشدودا إلى بعضه . مما يعني أن (العلاقة) ما بين عضو وعضو هي ذات
أهمية مصيرية لقيام ذلك (البنيان) الذي لن يكون مشدودا إلا بواسطة
تلك العلاقات ، وتصبح هذه العلاقة - إذا - هي ما يقرر الصلة ما بين

العضو المفرد وسائر الأعضاء ، ولكن وكما أنه (لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم) فإن واحدا من هذه الأعضاء سيكون رأسا أى مضغة توجه الصلاح والفساد وتبقى سائر الأعضاء تقدم وظائفها عبر سلسلة متعاقبة من (العلاقات) تحقق للبنيان تماسكه وللجسد وجوده المركب وحيويته .

وهذا يفضي بنا إلى أن (جسدية النص) تعني أنه يتكون تكويننا يشبه التكوين الحيواني بأن يكون له أعضاء مختلفة ومن بينها القلب ويربط بين الجميع علاقات تشد البناء . وأعضاء النص هي وحداته البنيوية الداخلية ولقد سميتها بالجمل الشاعرية (الخطيئة والتكفير ص ٨٩ وما بعدها) .

ومن بين هذه الوحدات سوف نجد واحدة مهيمنة وستكون حينئذ صوتيم النص أى قلبه ومضغته ، ويقوم بين الصوتيم وسائر الوحدات علاقات تتكون من التركيب الإنشائي والدلالي . وكل واحدة من هذه تمثل مفهوما اصطلاحيا نصوصيا ثابتا . ولكي نستكشف نصا ونسبر أغواره لابد أن ندخل إليه على أنه جسد ثم ننظر فيه عضوا نستبين العلاقة ما بين كل عضو والآخر ثم لننظر أيها أهم وأخطر للنص وسيكون هذا هو الصوتيم . ونكون بهذا قد أخذنا في (تشريح النص) ولكنه تشريح من أجل البناء وليس من أجل الهدم .

وهذا الفعل لن يتسنى لنا إلا إذا أخذنا بمفهوم الجرجاني حول علاماتية اللغة في قوله إن اللغة (تجري مجرى العلامات والسمات ، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه) انظر بحثنا : من المشاكلة إلى الاختلاف - مجلة الفيصل - عدد ١٢ فبراير ١٩٨٧ ص ٢٤ وما بعدها .

وكلام الجرجاني هذا يؤكد مفهوم (إشارية اللغة) والاشارة تقتضي أن ماهو مائل أمامك إنما هو (دال) زرعه المنشيء في النص وعليك أنت أن تقوم بربطه مع الدوال الأخر ، ليفضي بك ذلك إلى (الأثر) المفترض وجوده في النص . مع الأخذ بالاعتبار أن كل مفردة تقبل أن تعني الشيء ونقيضه - كما يقرر الجرجاني - وبالتالي فإن كل جملة في النص هي اختيار إنشائي لا يتضح مرماه إلا بقياسه بالاحتمالات الإنشائية الأخرى مما كان ميسورا قوله للمؤلف لكنه تجنبه وأثر المائل أمامك ، وسوف تعرف قيمة المائل حينما تقيسه بالمترك مثلهما ستعرف أثر الإثبات إذا قسته بالنفي والعكس كذلك .

ولكي نكون على بينة من أمرنا فلنقف عند قول الحصين المري :

وقافية غير إنسية

قرضت من الشعر أمثالها

شروء تلمع في الخافقين

إذا أنشدت قيل من قالها

هنا نحن أمام جسد حي مركب ، واستكشاف هذا الجسد يقتضي متناً تشريخه أولاً ثم إعادة تركيبه لكي نميز الأعضاء ونستخرج المضغة الأساسية (الصوتيم) ونرى العلاقات من أجل أن نصل إلى (الأثر) المفترض ، وهذا كله يمر عبر افتراض (علاماتية اللغة) وحرية الإشارة فيها .

وأول مانجده هو قوله في الشطر الأول : (وقافية غير أنسية) حيث يلج الشاعر باب القول من خلال (واورب) التي تفتح له آفاق الخيال

والتجلي الحر لأنها تعني الافتراض المطلق والاسترسال التلقائي ، وهو حينها يدخل أبواب الخيال لا يختار منها إلا الشعر فهو لا يفترض وجود قصر أو فتاة حسناء ، ولكنه يفترض قصيدة فريدة ، فهو يكتب أو بالأحرى يقول شعرا عن الشعر مما يجعل الشعر هو الأداة وهو الموضوع هو الطالب والمطلوب . وهذا الشعر يختصر في كلمة واحدة هي كلمة (قافية) . فالقافية - هنا - هي اللب والنواة وهي المضغ الصالحة ، وسمات هذه القافية هي أنها (غير إنسية) ، ومادامت قافية غير إنسية ، والشاعر إنسي فكيف يتسنى لها اللقاء ؟ .

إنهما لا يلتقيان . والشاعر لا يدعي هذا اللقاء بالرغم من أنه يمارس خياله على أوسع نطاق . لقد جاء الشطر الثاني ليقرر حال العلاقة ما بين الشاعر الإنسي والقافية غير الأنسية فيقول :

قرضت من الشعر أمثالها

في هذا الشطر يقرر أن شعره (يماثل) تلك القافية وليس هو إياها ، مما يعني أن شعره إنسي الهوية ولكنه أرقى من سائر أشعار الإنس ، وذلك لأنه يشبه ويمثل تلك القافية اللغز ، القافية غير الإنسية . وهذه ميزة يمتاز بها شعره ، مثلما أن فيه مزايا أخرى منها أن كل عنصر من عناصر هذا الشعر تشبه تلك القافية ولا يقتصر التشابه على القوافي فقط ، إنه يقول :

قرضت من الشعر

ولم يقل : قرضت من القوافي . وهذا ارتفاع بعناصر شعره كلها إلى مستوى تلك القافية غير الإنسية .

وإذا كنا قد أدركنا أطراف التشبيه مبدئياً فإنه مازال أمامنا جانب غائب من دلالات المشبه به وهو (القافية غير الإنسية) . إذ إننا لا نعرف ماهية هذه القافية حتى الآن ، ولذا فإن البيت الثاني يعود إلى تلك القافية ويجسدها لناحية بصفات نستطيع تصورها والتفاعل مع تصوراتنا لها وذلك بقوله :

شروء تلمّع في الخافقين .
إذا أنشدت قيل : من قالها

هذه هي ماهية تلك القافية غير الإنسية ، إنها شروء حرة مطلقة ، ولكن شروءها ذاك لا يبعدها عن الرؤية الإنسية ، وذاك أنها تلمّع في الخافقين ، والذي يلمع هو في الحقيقة مادة عاكسة لما هو موجود في الحياة ، مما يجعلها داخل دائرة الإدراك الإنسي لكنها فوق مستوى الأشياء الإنسية ، ولذا ظلت سابحة في الخافقين ، فهي إذاً تشبه (واورب) في أنها باب خيالي ، ولكنه باب قابل لأن يدخله من هو مؤهل لهذا الدخول ، فهو بعيد المنال ولكن بعده قابل للاختصار لمن ملك الأداة وتميأت له الأسباب لتحقيق النوال . ولذا فإن هذه (الشروء) تدخل في دائرة (الإمكان) وقد يحدث أن يقبض عليها ماهر ما فينشدتها وإذا - نعم وإذا - أنشدتها فسوف يقال له حيثئذ : من قالها .

هذا كله افتراض تخييلي ، ربما يحدث . فإذا حدث ذلك وتم الانبهار والعجب وصار (الأثر) اللافت للنظر ، إذا حدث هذا فإنه يشبه حيثئذ شعر الحصين المري .

إن شعر هذا الشاعر له من القيمة حدًا لا يمكن وصفه بمقاييس الواقع ، ولذا فقد صار الشاعر لوصف شعره بأن استنبط صورة تخيلية لقافية كانت تلك صفتها . وهي قافية غير موجودة ، لكنها (إذا) ما وجدت فسوف تكون هي المثال لشعر الحصين . وهنا نقول إن علامة (إذا) هي المضغة التي يعتمد عليها النص أى هي (الصوتيم) لأن البناء الافتراضي يقوم عليها . ولو ألغيناها لأزحنا الوظيفة الشرطية التي تجمع ما بين العدم والوجود ما بين الخيال والواقع ، إن (إذا) تحقق للنص خياليته من ناحية ، لأن هذه العلامة تعني أن تلك القافية الشرود قابلة لأن تنشأ ولكنها مع هذا تظل شرودا تلمع في الخافقين وتظل غير أنسية لأنها غير منسوبة إلى أحد من الناس وفاعل الإنشاد مجهول ، وحدث الإنشاد لم يقع إلا على مستوى الخيال الإنشائي .

وإشارة (إذا) هي التي ستحدث السؤال المبهـر : من قالها ؟ فالسؤال لا يحدث إلا بعد أن تتحقق (إذا) من خلال فعل الإنشاد ، وهو إنشاد لم يحدث بعد لأن إذا (ظرف زمان مستقبل) حسب قيمتها اللغوية . وكونها كذلك يفسح المجال لهذه الأبيات في أن تكون نصا تخيليا مطلق الدلالة ومتجدها . وهذه قيمة دلالية لا تتحقق إلا بوجود هذه الكلمة العلامة .

أكاد أقول هنا إن استخدامنا لفكرة النص / الجسد وأخذنا بما يستتبعه ذلك من مفهومات مثل الصوتيم كعضو متميز في ذلك الجسم ثم وقوفنا على العلاقات ما بين العناصر ، مع استخدام مفهوم إشارية أو علامائية اللغة ، ومن ثم بحثنا عن (الأثر) ، أقول إن هذا هو ما جعلنا نقف على

أسرار هذا النص . على أن هذا فعل لا يمكن وصفه بأنه بنيوية لأننا فيه نفتح البنية ونطلقها للدلالة من خلال توظيف (الأثر) . كما أننا نسمح - عادة - بتداخل النصوص . وإن كنا لم نلامس ذلك في مقالنا هذا فليس إلا لضيق المجال ، وسنشير إلى المداخلات الواردة مع هذا النص في مقال يأتي لاحقا إن شاء الله .

كما أن فعلنا هذا ليس تفكيكية لأننا هنا لا نبحث عن عيوب الخطاب ولا نسعى لتقويضه ، وإن كنا نأخذ بمفهوم (الاختلاف) ، إلا أن هذا المفهوم عندي هو إلى الجرجاني أقرب منه إلى ديريدا . وهذا لا يعني أنني لا أستفيد من ديريدا . بل إنني أقرأ لهذا الرجل وأستفيد منه ، ولكن ذلك لا يلغي الجرجاني ولا يزيحه من ذهني ، بل إنه يعمقه في نفسي ويزيده رسوخا في يقيني . كما أننا لا نستطيع أن نقول إن فعلنا هذا هو (سيميولوجية) خالصة . إنه قريب منها ووثيق الصلة بها ولكنه ليس إياها تماما .

لقد أفاد من هذه جميعا مثلما أفاد من أسلافنا كلهم ، وهو مسلك مفتوح على كل ما يفيد ويثري . ولذا فإنني أسمى منهجي بالنصوصية أو بالنقد الألسني ، وأسمى الإجراء بالتشريحية لأن مانفعله إجرائيا هو ممارسة التشريح فعليا من أجل الوصول إلى سبر تركيبات النص وأبنيته الداخلية ، ثم نأخذ بتفسير العملية تفسيرا نصوبيا يقوم على مبدأ من تفسير القرآن بالقرآن . وسأوضح هذه المسألة بمقال يخصها لاحقا - إن شاء الله .

بقي أن أقول إنني أجد نموذجي هذا ، أقصد نموذج النص الجسد

ومستلزماته ، أجدّه نموذجاً كاملاً في كل فعل لغوي ، ولم يتمرد على ذلك أى نص فيما قرأت وعرفت من نصوص قديمة أو حديثة . ولكن قد يحدث أحيانا أن نجد أكثر من صوتيم في نص واحد . وهذا ليس غريباً إذا ما قسنا ذلك على مثالنا الأصلي وهو الجسد حيث نجد (المخ) بإزاء (القلب) ، وكلاهما على درجة كبيرة من الأهمية مما يجعلهما صوتيمين ، ولقد يحدث هذا في النص أيضا .

وأشير أيضا إلى أن النصوص تشتمل كثيرا على وحدات متكاملة داخليا ، وسوف نجد أن كل وحدة تشتمل على صوتيمها الخاص الذي تتأسس عليه فهي جسد داخل جسد . وهذه الوحدات بعد ذلك تتداخل وتتكامل لتشكيل النص ، تماما مثلما نجد التركيب الاجتماعي ينشأ من الأسرة فالحي فالمدينة فالمقاطعة فالدولة . الخ . وكل بناء من هذه الأبنية يقوم قياما تركيبيا حيا مثل الجسد وأعضائه ثم يدخل في تركيب أكبر منه وهكذا يكون . وليست النصوص إلا على هذا المثال ، فالأطلال وحدة دلالية تدخل مع غيرها من الوحدات كالغزل ووصف الفرس وكل واحدة منها لها صوتيمها الخاص ، وإذا تألفت مع بعضها في نص صارت إحداهن صوتيما للأخرى ، ثم تدخل القصيدة مع غيرها في ديوان ويدخل الديوان مع غيره في عصر شعري ، ويدخل العصر مع غيره في ثقافة أمة . . وهكذا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ، والكل في علاقات تشده لتكوّن منه بنيانا . وهانحن في بنين يستفيد من تجارب الأمم دون أن ينسلخ عن جلد العربية لأنه بنين يتعامل مع مفهومات نصوصية لها جذور عميقة في ثقافتنا ، كما أوضحنا في الحلقة الماضية ،

وكما سنوضح أكثر في الحلقات القادمة حيث نقف على التداخل وعلى تفسير النصوص ومبادئه الأساسية .

هامش :

لقد حرصت على التقيد بالمرجعية العربية في عرضي هذا . ومن شاء النظر إلى ذلك من زاوية حديثة فأرجو أن يعود إلى (الخطيئة والتكفير) وإلى (تشريح النص) حيث الفصل المعنون بـ (لماذا النقد الألسني : سؤال في نصوصية النص) وفيه عرض نظري مع تطبيق تحليلي يساعد على توضيح الفكرة وتدقيق المصطلحات .

تراخل النص

النص ابن النص

لقد كانت وقفننا السابقة على (جسدية النص) وعلى مناحي تشريحه ، من حيث سبر تركيباته وإقامة العلاقات فيما بينها لاستنباط البنية الأساس (الصوتيم) ، وكل ذلك يتم من خلال أخذنا بمفهوم (علامائية اللغة) ويكون كل عنصر في النص هو بمثابة إشارة حرة يتحقق (أثرها) من خلال دخولها في تركيب ينظمها ويوجه دلالتها .

ولئن كان مفهوم جسدية النص وكونه كائنا حيا ومركبا هو لب الفكرة فيما قلناه ونقله عن نصوصية النص فإن هذه الجسدية لا تقوم على (عزل) النص عن سياقاته الأدبية والذهنية ، ذاك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماما مثل الكائن البشري ، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ . إنه نتاج أدبي لغوي لكل ماسبقه من موروث أدبي ، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه . ومن طبع النص الأدبي أن يكون غصبا ومنتجا تماما مثل كل كائن حي كالإنسان والشجرة . وقد يحدث أن نجد نصا عقيما مثلما نجد إنسانا عقيما . وقد

يكون العقم بأسباب طبيعية تنتج عن نقص في عناصر الإنتاج داخل الكائن ، وربما تكون عن أسباب اصطناعية يتخذها الانسان ضد حاسة الإنجاب فيه - كما هو موجود في زماننا هذا أو كما فعل المعري بنفسه حينما منعها من الإنجاب وقال قولته المعروفة :

هذا جناه أبي علي
وما جنيت علي أحد

هذه أمور تصيب النص مثلما تصيب الإنسان فتجعله عقيباً لا ينجب ولا ينتج ، وكما من نص نقرأه فلا نجد فيه شيئاً ذا أثر يحرك مابعد ، ويتهيئ النص عند حدود القراءة الأولى عاجزاً عن إحداث قراءة ثانية أو توليد نص إنشائي إما بالكتابة عن النص ذاته أو بتفجير نص آخر في نفوسنا يتنشأ من انفعالنا بالنص المقروء . على أن العقم هذا قد يصيب القراء فيجعل النص المخصب عقيباً حينما يقرأه قارئ عاجز ويدعي أن النص لا شيء فيه أي أنه نص عقيم وليس العقم في النص ولكنه في ذائقة القارئ العاجز . وهذه حالة لمسه شيخنا ابن جني وقال فيها مخاطباً أحد العاجزين ممن أصابه العقم أمام اللغة : (فإن رأيت شيئاً من هذا النحول ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه ، فأحد أمرين : إما أن تكون لم تمنع النظر فيه فيقعده به فكرك عنه ، أو لأن لهذه اللغة أصولاً وأوائل تحفى عنا وتقصر أسبابها دوننا) .

هذا هو عقم القارئ الذي يحدث من عدم إمعان النظر أو عن دقة أسرار اللغة ، وعلاج ذلك هو في تشریح النص تشریحاً يبلغ دقائق

تكويناته الداخلية . على أن النصوص الأدبية في غالبها نصوص معطاء
منتجة وقليل منها العقيم ، هذا إذا سلمنا من عقم القراء .

والنصوص تدخل في شجرة نسب طويلة ذات صفات وراثية وتناسلية
فهي تحمل (جينات) أسلافها كما أنها تتمخض عن (بذور) لأجيال
نصوصية تتولد عنها ، ونحن نستطيع أن نعين كذلك كله على جسد
النص وحركته التحولية ، وكل حضور ذهني يحدث عندنا ونحن نقرأ نصا
ما فإن هذا التداعي هو نتاج تلك السمة التوارثية ، فالمعارضات الشعرية
يستدعي بعضها بعضا وكذلك النقائض والاقتراسات والتضمينات
وما يسميه الأوائل بالسرقات الأدبية وما يسميه الجرجاني بالاحتذاء هو كله
(تداخل نصوص) - انظر الخطيئة والتكفير ص ص ١٣ / ٥٥ / ٣١٧ -
فالنص يدخل على نصوص أخرى تسبقه فيكون نتيجة لها وأخرى تلحق به
فتكون متولدة عنه ، وهو بينها حلقة في سلسلة طويلة بدأت في الماضي
السحيق الذي لا ندرك إلا بعضه ، إذ لم يأتنا من شعر العرب إلا أقله ولو
جاءنا كاملا لجاءنا علم وشعر وفير كما قال أبو عمرو بن العلاء . وهي تمتد
إلى مستقبل آت لن ندرك إلا بعضه .

ولقد كان لي من قبل وقفات عن (تداخل النصوص) في علاقات
النص مع ما قبله من نصوص ، على أساس أن مفهوم (تداخل النصوص)
هو من المفاهيم الأساسية في طريقتي لقراءة الأدب وتحليله مما يعني أنني
أتعامل مع النص على أنه (بنية) مفتوحة على الماضي مثلما انه وجود حاضر
ويتحرك نحو المستقبل . وهذا يغير ويناهض فكرة البنية المغلقة على
(الآنية) ، ولقد شرحت موقفي هذا من قبل في حوار مع الأستاذ أحمد
الشيبياني في (الأربعاء) . وأنا اليوم أتناول النص ليس على علاقته مع

الماضي كما كنت فعلت من قبل ولكنني سأقف على أبيات الحصين المرى من زاوية تداخلها مع نصوص أتت من بعدها .

فالحصين - كما رأيناه في الاسبوع قبل الماضي يقول :

وقافية غير إنسية
قرضت من الشعر أمثالها
شرود تلمع في الخافقين
إذا أنشدت قيل من قالها

وهي أبيات تنكيء على تقليد عربي عريق حول العلاقة ما بين الشعر والجن ، وكما ينقل أبو زيد القرشي (مَنْ عَبيد لولا هَبيد) وهبيد هذا هو شيطان الشاعر عبيد بن الأبرص ، ولكل شاعر - عندهم - شيطان يهتبه الشعر ، ولذا اختر أبو النجم العجلي بشيطانه وقال :

إنني وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

ولعله كان يرى أن فحولة شيطانه ستؤول به إلى فحولة في شعره فيبرز بذلك أقرانه ، وهو بذلك يلتفت بدلالات الحصين المرى التفاتا يكشف المصدر الإلهامي عند الشاعر ويصرح به ، حيث إن الحصين وقف وقوفا تخيليا عند أسطورة (شيطان الشعر) ولم يرد لشعره أن يكون من ذلك المصدر ولكنه أراد له مجد التفوق والتسامي فوق البشر فتخيل قافية شرودا لم تتفوه بها الشفاه ، ولم تكن بعد ، وراح يشبه شعره بذلك الذي لم يكن

بعد . أما العجلي فإنه يأخذ بتلك الدلالة ولا يكتفي بمجرد التماثل القائم فيها ولكنه يجعلها مصدرا لقوته فجعل الشيطانية بديلا عن مجرد (عدم الإنسية) وجعل هذا الشيطان ذكرا بديلا عن القافية الأنثى فجاء الاختلاف على هذه الشاكلة ما بين الأنوثة والذكورة حيث يقول الحصين :

وقافية غير إنسية

فيعارضه العجلي متداخلا معه ومختلفا عنه بقوله :

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكأنه يسمى إلى تجاوزه بهذه المفارقة العنترية ، وهو مع هذا الغلو والتهادي في المواجهة لا يطلق قوته إلا في وجه البشر فقط وكأنه يقول للجن إني لست معكم في سباق ولكنني أسابق البشر فقط ولذا قال :

إني وكل شاعر

ثم حدد ذلك وقال (من البشر) فهو يميز البشر ويمتاز عليهم جميعهم بذكورية شيطانه ، دون أن يغضب الجن عليه أو أن يناهم في منافسة إبداعية لا يقوى عليها مما يبقى على جلال القافية غير الإنسية ويحفظ لها سموها بالرغم من أنوثتها ، فهي مبجلة وجليلة المقام بما إنها غير إنسية ، ولكن التهايز والتسامي هو فيما بين الشعراء البشر في مصادر إلهامهم الشيطاني من حيث هو ذكوري أو أنثوي . وليس على الأولى إلا العجلي أما الآخرون فلهم الشياطين الإناث .

مادام المجد الشعري محفوظ المصادر فإن سمة (الشرود) ستظل
 نة شاعرية تمنح الشعر جلالا وكمالا مثلما قرر الحصين المرى ،
 سدر الغيبي للإلهام يحتم صفة (الشرود) . ولكن القافية الشرود هذه
 ول مع الزمن لتصبح (شوارد) تماما مثلما تتناسل العائلة من جدّ واحد
 أحفاد عدة يتولدون ويتناسلون إلى أجيال كثيرة ، وكذلك فإن
 شرود (الواحدة لدى الحصين تتحول إلى (شوارد) من الأحفاد لدى
 ي ، وحينها يرتاح الشاعر وينام لأنه حقق مراما شعريا عريقا :

ام ملء جفوني عن شواردها
 ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم

وهكذا تتحول (شرود) الحصين إلى (شوارد) المتنبى ولكن من دون
 يلامسها القيد أو يمسك بتلابيبها ممسك إذ يظل الخلق يسهرون
 تصمون جراها ، وهم لن يلتفتوا أبدا أبدا لأن الاتفاق يحول الشوارد
 مقيدات ، وضبط المعاني وحصرها والتواطؤ على ذلك سيحول كلمات
 ماعر إلى (مقيدات) وحيث سيموت الشعر . ونقول إن الشعر سوف
 ت لو تمّ هذا الحصر لأن بناء البيت هنا قام على حالة الإطلاق وهذا
 سير إليه البيت الذي سبق بيتنا هذا ولننظر فيهما معا :

الذي نظر الأعمى إلى أدبي
 وأسمعت كلماتي من به صمم
 ام ملء جفوني عن شواردها
 ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم

إن صفة (شوارد) هنا هي صوتيم النص هذا لأنها هي التي ولدت

ذلك الشعر الذي جعل الأعمى يبصر وجعل الأصم يسمع وجعل الخلق كلهم يسهرون ويختصمون . كل ذلك يتم بسبب تلك الكلمات الموصوفة بأنها (شوارد) ولو تقيدت هذه الشوارد لاتفق الناس وزال الخصام وانتفى السهر حينئذ . وسيعود الأعمى إلى عماه والأصم إلى صممه ، ولن يكون هناك مزية بعد ذلك ، وحينها سوف يسقط الشعر ويموت .

ولكي لا يحدث هذا فلا بد للشوارد أن تظل كذلك ويجب أن يستمر الخصام والسهر جراها لكي يظل الشعر شعرا حيا مخصبا في عقول مخصصة . ولكي يظل النص ابن النص والنص ويظل المتنبي ابن العجلى ابن المرى . ويأتي بعدهم حفيد وحفيد وأحفاد ، وليكن نذير العظمة واحدا من (هؤلاء الأشقياء) وهذه العبارة من عمر أبوريشة . وحفادة العظمة هؤلاء تتجلى في قوله :

بينما أجمه لجماء على باب عنيزه
خلت شيطانى لهيبا لكزته الريح لكزه
في دمي في خافقي في جسدي ينشر أزه
كلما دافعته يقفز في وجهي قفزه :
انتفض فالجمر مازال غضا في قلب عزه .

هذا مقطع افتتاحي من قصيدة ضافية لنذير العظمة هي قصيدة (عنيزة والحلم) فيها نكتشف أن شيطان الشعر لم يمت في عصر التكنولوجيا ولم يزل هذا الشيطان قويا وشرسا . وهذه القوة تبلغ حدا ينهزم أمامه الشاعر وتنهار قدرته على المقاومة والممانعة فيستسلم أخيرا ويكتب القصيدة والقرار هنا هو قرار شيطان الشعر الذي يصدر أمره إلى الشاعر :

انتفض فالجمر مازال غضا في قلب عزه

ويتنفض الشاعر ويكتب ستة وستين بيتا ترضي كل شياطين الشعر ،
وتسرق شيطان العجلى من قمقمه فتأخذ ذلك الشيطان الذكر وتجعله يقف
على باب عنيزه يترصد مقدم نذير العظمة ويدخل الاثنان في صراع ينتصر
فيه الشيطان الذكر وتكون القصيدة . ولكن ذكورة هذا الشيطان لا تلغي
الأنوثة عند العظمة كما فعلت عند العجلى ، إذ يظل رمز الأنثى في قصيدة
(عنيزة والحلم) قويا وفاعلا ويظل قيمة دلالية ولودا . وليس الشيطان
الذكر سوى فارس يقف على باب عنيزة يبحث في وجوه القادمين فإذا
ما أحس بأن أحدهم شاعر أمسك بتلابيبه وعاجل سكونه ووقاره ليحول
السكون إلى اضطراب كي يتنفض الشاعر (كما انتفض العصفور بلله
القطر) ويكتب القصيدة . ولكن هذه القصيدة لمن ؟ . إنها لعنيزه .
وهذا يعني أن الشيطان الذكر يشتغل من أجل الأنثى ويسعى لخدمتها
وخلودها ، وهذا تحويل لوظيفة شيطان الشعر يحدثه نذير العظمة الذي
يتداخل مع المرى والعجلى ، ولكنه يحول السمات الشعرية المتنافرة عندهما
إلى سمات متزاوجة تزاوجا منتجا ومولدا . وعلى يدي هذا النص تلتقي
الدلالات ويتولد التداخل في توازن متناسل . وهنا نجد أنفسنا مع حالة
التلاقح الثقافية التي أشار إليها أبو حيان التوحيدي بكلمته الجميلة التي
منها قوله :

(لما تميزت الأشياء في الأصول ، تلاقحت ببعض التشابه في
الفروع ، ولما تباينت الأشياء بالطبائع تألفت بالمشاكلة في
الصنائع ، فصارت من حيث افرقت مجتمعة ، ومن
حيث اجتمعت مفترقة ، لتكون قدرة الله - عز وجل - آتية
على كل شيء ، وحكمته موجودة في كل شيء ، ومشيبته
نافذة في كل شيء) .

كذا هو الأمر بإرادة خالق الكون اجتماع يفضي إلى افتراق ، وافتراق يفضي إلى اجتماع . وكل شتات ظاهري ينطوي على وحدة داخلية لا تدركها إلا العقول الموهوبة . وكل اختلاف يؤول إلى ائتلاف ، وتلك هي وظيفته وليس النص الأدبي إلا مضمارا حيا لتمعن هذه الحكمة واستكشافها . وكل قطرة هي من المحيط وإلى المحيط . وبذلك يكون النص كائنا حيا وهو جزء من سياق يشملته ويتمخض عنه في الوقت ذاته .

وتداخل النصوص يستند على هذا التصور . وإني لأحسب هذا الأمر واضحا ولسوف أزيده إيضاحا على إيضاح في آتي المقالات - إن شاء الله - .

وأخيرا أشير إلى أن ظاهرة (تداخل النصوص) هي سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تتشكل العوامل الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي متمترجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل ، وإن وقفة سريعة على طبيعة التأليفات العربية الأولى لتثبت لنا ذلك ، حيث نجد كتب أسلافنا تقوم على مزيج معرفي متشابك ، وهذا الجاحظ ومؤلفاته ، ومنها كتاب الحيوان الذي يقوم ويتأسس على (التداخل) المطلق ، وفيه تقوم الملاحظة التجريبية بجوار ثقافة الرواية ويدخل بينهما ثقافة الدراية ، وكل قول يدخل بنا إلى قول آخر ، ويكون الحديث ذا شجون - كما هو المثل العربي - وكلمة شجون هنا معناها غصون ، أي أنها توحى بالتمدد والتناسل الحيوي ، وعلى ذلك كل كتب أسلافنا وعقولهم أيضا حيث يجتمع العالم كله في (مجال) واحد . ومثلما يحدث ذلك في المؤلفات فإنه يحدث أيضا في القصائد ، وكلنا نعرف تنوعات القصيدة العربية

وتشكيلاتها المتنوعة ظاهريا والمتداخلة نصوصيا . ولقد شاع تسمية ذلك بالاستطراد وهذا ما توصف به مؤلفات الجاحظ وغيره من الأسلاف . ولكن الحق هو أن ذلك تداخل نصوصي له ما يبرره وما يستدعيه من النصوص نفسها ، وكلها نصوص أدبية أو علمية يقود بعضها إلى بعض ويفضي إليه ، والحضور الذهني المشترك ما بين إشارات النص وذهن الكاتب هو الذي يقيم تلك العلاقات والتداعيات .

تفسير الشعر بالشعر

من جغرافية النص إلى جيولوجية النص

(والذي حارت البرية فيه) هو تفسير النص الأدبي وتشعبت المواقف حول ذلك ما بين نظرة ظاهرية تكتفي بصريح الدلالة ، ونظرة تأويلية تعني بخفايا الأمور وبواطنها ، وكأني بالنظر الظاهري قد نظر نظرة تشبه دراسة الأرض دراسة جغرافية تعني بما على سطحها من مظاهر بارزة ، بينما النظر التأويلي المفرط يقوم على غيبات ظنية تعتمد على الحدس والتخمين ، وهذان طريقان قد يشبعان نظرة الناظر ولكنها لا تفيان بحق النص ، والأولى بنا أن نتقل من (جغرافية) النص إلى (جيولوجيا) النص ولكن مع التمسك براهين النص ومقوماته التكوينية لكي لا نتوه في تأويلات تخمينية يفرط بها حبل العلاقة فيما بيننا وبين عالم اللغة والناس .

وجيولوجيا النص هذه تقتضي الأخذ بنصوصية النص وهي أن نجعل مادته الأساسية هي البرهان على وجوده وعلى وظيفة هذا الوجود . ونجعل لغة النص هي الطريق إلى توليد معاني النص ، أي أن نعطي التركيب حقه في تأسيس السياق الداخلي ومن ثم السماح للنص لكي يشتبك في سياق عام يشمل ، فقصيدة طلملية لا بد أن تنتمي إلى شعر الأطلال بعامه ، وكل رمز

فيها لن يتم فهمه إلا بعد أن تتمثل هذا الشعر ونذكر مراميه السياقية ، وهذه هي ثقافة النص التي يعتمد عليها ويتجه نحوها . ومن هنا فإن تفسير الشعر لا يكون إلا بالشعر . ونحن بهذا نفتدي بالمرسرين الذين رادوا هذا المجال ووصلوا فيه إلى مستوى مذهل من الدقة المنهجية . ومن ذلك ما فعله شيخنا عبدالرحمن السعدي ، رحمه الله ، في تفسيره للقرآن ، ثم في وضعه لكتاب أصولي بعنوان (القواعد الحسان لتفسير القرآن) وضع فيه سبعين قاعدة للتفسير بناها على مفهوم (تفسير القرآن بالقرآن) وهو المفهوم الذي قال به شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله .

ومن قواعد الشيخ السعدي قوله : (العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب) ، وهذه هي القاعدة الثابتة عنده . ونحن إذا مأخذنا بالمبدأ النصوصي الأساس وهو تفسير الشعر بالشعر بحجاءة لمبدأ تفسير القرآن بالقرآن ، ثم وقفنا عند هذه القاعدة التي تجعل شمولية النص فوق المناسبة والظروف وتغلب جانب الدلالة الكلية ، فإننا نستطيع أن نحقق للنص وظيفته الإبداعية التي تجعله قولا جماعيا وليس تعبيرا ذاتيا أو إقليميا أو ظرفيا .

والحق أن أسلافنا كانوا يغنون ذلك حق الوعي ، ولذلك فإن الصولي أخذ قصيدة ابن الرومي عن الوطن وأدخلها مع جملة قصائد عن الأوطان ومحبته . وهي التي يقول فيها :

ولي وطن أليت إلا أبيعه
والأرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

فقد ألفتة النفس حتى كأنه
لها جسد إن غاب غودرت هالكا
وحبيب أوطان الرجال إليهم
مأرب قضاهما الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم
عهد الصبا فيها فحنّوا لذلك

وابن الرومي في حقيقة الأمر لا يتحدث عن وطن ولا هو في حين إلى
بلاد ، ولم يفقد ابن الرومي وطنه قط ، وأبياته من حيث المناسبة والظرف
لا شأن لها بالوطن والأوطان . وقصة هذه الأبيات هي أن رجلا تاجرا
يدعى ابن أبي كامل قد أجبر ابن الرومي على بيع داره واغتصب منه بعض
جدرانها ، وراح الشاعر إلى سليمان بن عبدالله بن طاهر يشتكي له الحال
ويستعين به على ردّ داره ، وكلمة وطن وأوطان تعني بيتا وبيوتا . مما يعني
أننا أمام حالة من حالات (خصوص الأسباب) فهل ياترانا سنقف عند
حدود هذه الظرفية الخاصة ونحجر على القصيدة ونمنع أنفسنا من التفاعل
معه لأن صراع ابن الرومي مع ابن أبي كامل لا يعنينا ولا يهمنا
بحال . . . ؟ !

إن جواب أبي بكر الصولي يأخذ بقاعدة (عموم الألفاظ) ولا يقف
عند خصوص الأسباب ، وكذا هي حالنا نحن إذ إننا نجد الناس في زمننا
هذا - زمن الكلام عن الأوطان - تستشهد بهذه الأبيات وتردها في كل
حادث وطني ، ولا يخطر ببال أحد منهم حادثة ابن أبي كامل أو بيت ابن
الرومي وجدران ذلك البيت . وكذا هي الحال مع كل نص يملك القدرة

على شمولية الدلالة . والحكم في ذلك على طاقة اللغة التي يجب أن تكون ذات صفات أدبية إذا كان النص نصا أدبيا .

ومن قواعد الشيخ قوله بـ (مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام) ويشرح ذلك بقوله : (والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع : أن تفهم ماداً عليه اللفظ من المعاني ، فإذا فهمتها فهمها جيدا ، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها ، ولا تحصل بدونها ، وما يشترط لها ، وكذلك فكر فيما يترتب عليها ، وما يفرع عنها ، وينبني عليها . وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه ، حتى يصير لك ملكة جديدة في الغوص على المعاني الدقيقة . فإن القرآن حق ، ولازم الحق حق . وما يتوقف على الحق حق ، وما يفرع عن الحق حق . ذلك كله حق ولا بد) ثم يقول : (ولهذا يعلل الله تعالى كثيرا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من : مقتضاها وأثرها) .

ونحن لو تأملنا كلام الشيخ هذا لوجدناه يشكل أسسا أصولية لتفسير النصوص ، إذ إنه يربط اللفظ بالدلالة ثم بالفهم الجيد ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التفكير بما يفضي إليه ذلك من أمور تستلزمها تلك الدلالة ، وبلي ذلك ما يترتب عليها وما يفرع عنها وما ينبني عليها ، وكل هذا يمثل دلالات لا توجد ظاهريا في النص ولكنها متضمنة فيه ومستلزمة منه ، وذلك لعمومية دلالاته وشموليتها .

ثم إن الشيخ لا يقف عند رسم الحدود الإجرائية الصرفة ، ولكنه يبحث الدارس على التأمل والتبصر : (وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه

حتى يصير ملكة جيدة) ، وهذه ليست مجرد ملكة ذهنية راقية ، ولكن الهدف منها هو : (الغوص على المعاني الدقيقة) .

إن الدخول الصحيح على النص لا يتم إلا بفروسية علمية محكمة الأدوات والإجراء . وهذا العلم وحده لا يكفي إذ لابد من دخول الذائقة التي يحدث لها التدريب المتواصل على (الغوص) . فالنص فرس أصيل لا تعطي قيادها إلا لفارس متمرس في علمه وذوقه وتلك هي نصيحة الشيخ السعدي مثلما أنها نصيحة أبي حامد الغزالي ، رحمه الله ، الذي يقول شارحنا تجربته الذوقية مع المعرفة إن هناك (ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم) فالعلم وحده لا يكفي ، ويزيد أبو حامد فيقول : (بل بالذوق والحال وتبدل الصفات) ويشخص مقولته بأن يعطي مثلاً عليها فيقول : (كم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان) .

وهنا تمثل الحال بين يدينا لتكون هي والذوق وتبدل الصفات شروطاً لبلوغ العلم والمعرفة غايتها ولأدائها لوظيفتهما . ولا يكفي حينئذ أن نقرأ النص ولكن لابد أن نعرف نصوصيته ، وهذه المعرفة أيضاً لا تكفي بل لابد أن نعشق النص وأن نتحجب إليه لكي يفتح لنا صدره ، ونغوص بعد ذلك فيه غوصاً يخرج لنا اللؤلؤ ودقائق المعاني وأسرار البلاغة وسحر البيان . إنها عملية علم وذوق وحب .

ومن قواعد الشيخ السعدي الكلية التي يمكننا الأخذ بها في الدرس الأدبي قاعدته حول شمولية السياق حيث يقرر أن : (السياق الخاص يراد

به العام) ، وهذه قاعدة تربط ما بين الخاص والعام وتجعل الخاص يفضي إلى العام ويؤول إليه ولا يتقيد من دونه . وهذا مبدأ تفسيري من المهم الأخذ به في تفسير دلالات النصوص الأدبية وتحريك قوتها الإبداعية .

وفي القاعدة الثامنة والخمسين يقرر الشيخ أن (الكمال إنما يظهر إذا قرن بضده) ، وهذه قاعدة رأينا في تحليلاتنا السابقة في هذه المقالات أنها أساس مهم لإدراك الدلالة ، وهي قاعدة أسلوبية اعتمد عليها التحليل الأسلوبي الحديث ، ونحن نرى هنا أن المفسرين قد وصلوا إلى هذه القواعد الأصولية في التفسير النصوبي سابقين بذلك جهود المحدثين ، بعد أن لامسوا مشكلات تأويل النص ، وهي المشكلة التي أفاض فيها شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرا وناقشها مناقشة طويلة وعميقة انتهت به إلى وضع قاعدة في التأويل تقضي بأن نتطلب تفسير القرآن والحديث تفسيراً يستند على القرائن الموجودة في القرآن والحديث نفسها من حيث إن اللفظ يتكرر وجوده في مواقع أخرى فيها ، ومن هذا التواتر تتولد القرائن المفضية إلى المعنى المراد ، وبذا يكون التأويل مستندا على براهين من النص نفسه وليس يستند إلى تخمين ذاتي من المفسرين (انظر كتاب موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية . وانظر الدكتور محمد الجليلند : ابن تيمية وقضية التأويل) .

ومبحث التأويل هذا مبحث طويل ومهم لا تكفى فيه هذه المعالجة ولكنني أكتفي بهذه الإشارات الموجزة موضحاً كم هو النقد الأدبي محتاج إلى جهود المفسرين من أجل الإفادة وتوسيع مجال الدرس الأدبي وضبط قواعده ، مثلما أقول بحاجة طلاب (النظرية) إلى علماء الأصول والمنطق من أجل تأسيس كليات نظرية شمولية توجه النظر وتضبط الإجراء .

تذييل

أذكر تباعاً أن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، رحمه الله ، وضع تفسيراً
للقرآن الكريم معتمداً فيه على (تفسير القرآن بالقرآن) وعنوانه :
(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) .

جيش الأسئلة

« عزيز ضياء ومادة للحوار »

بما ينسب إلى الأديب اللغوي أبي هلال العسكري قوله :
قلو انني جعلت امير جيش
لما قاتلت إلا بالسؤال
فإن الناس يهزمون منه
وقد ثبتوا لأطراف العوالي

وفي مقالة أستاذنا الجليل عزيز ضياء يوم الخميس الماضي عن محاضرتي
بأبها وأبل من الأسئلة ونبال من الحب ، ذلك النوع من الحب الذي تتولد
عنه الأفكار حسب مقولة رومان ياكوبسون من أن الخلافات السياسية
تورث الحروب أما الخلافات الثقافية فتولد الأفكار . وكأني بأستاذنا
المضيء دوما عزيز ضياء يأخذ برأي أبي هلال العسكري الذي صارت
عسكريته ثقافية وصارت تولد الأفكار من خلال الأسئلة والاختلاف
الاجتهادي ، وأجل ما في اختلافات الأستاذ ضياء هو إثارته الدائمة
للتحدي والمجابهة . ولذا فإنه يختم مقاله تلك بمطالبي (ومطالبة
الأصدقاء عابد خزندار وسعيد السريحي) بتقديم دراسة عن إحدى

قصائد غازي القصيبي لكي تكون مادة للحوار والمناقشة ، وإنه لمن حسن حظي أن يجيء طلب الأستاذ محمدا ومدققاً بهذه الشاكلة ، ذلك لأني في طور الانهماك الآن لإعداد دراسة عن عدد من شعرائنا ومن ضمنهم غازي القصيبي ولقد تمت الدراسة وأتبعتها بمسألة مع الشعراء المدرسين حول رأيهم فيما قيل عن قصائدهم . ولقد وصلتني إجابات الشعراء المعنيين ، ولسوف تصدر هذه الدراسات ومعها الردود في كتاب^(١) . ولكنني أقتطع الآن منها الجزء الخاص بغازي القصيبي وأعرضه للنقاش ، وإني لم أطلع لحوار مفيد قد يعود على كتابي هذا بفائدة لم أتوقعها . وأول هذه الفوائد هو أن أعرف رأي أستاذنا الكبير عزيز ضياء ، وثانيهما هو أنني أنشر هذا الجزء كاملاً بعد أن حدث نشره من قبل ناقصاً ومبتوراً . أما ثالث الفوائد فهي فائدة طريفة ومؤلمة وهي أن هذا الجزء من البحث قد سطا عليه طالب من الطلاب وقدمه باسمه كبحت في النقد الحديث ، ولقد كشف صديقنا الدكتور عبدالله المعقل هذه الحادثة ، وتعامل معها بما يجب ولسوف يكون نشري للدراسة إثباتاً للملكية وإشاعة لها . وهذا تحليل ودراسة لقصيدة غازي القصيبي .

تنوير :

لقد اقتطعت هذه الدراسة من دراسة شاملة عن (نماذج المرأة في الفعل الشعري المعاصر) شملت ثلاثة شعراء هم حسين سرحان ، وغازي القصيبي ، ومحمد الحري . وكل واحد منهم يمثل مرحلة نصوبية ، وجاءت النماذج الشعرية لديهم متميزة فلدى سرحان نجد المرأة / الموت

(١) لقد صدرت هذه الدراسة في كتاب عنوانه (الكتابة ضد الكتابة) بيروت ١٩٩١ م .

وعند القصصبي نجد المرأة / الحياة ، بينما نجد المرأة / الفعل في قصيدة الحربي . وهذا الجزء المنشور هنا يخص المرأة / الحياة ، كما هو نموذج القصصبي . وفي الدراسة إشارات إلى نموذج حسين سرحان لن يتضح للقارئ معناها إلا بالعودة إلى كامل الدراسة . وإليك الجزء الخاص بغازي القصصبي :

المرأة / الحياة

يقول شلي إن (الشعر أغنية يسلي بها الشاعر وحدته)^(١) ويبدو أن الشاعر غازي القصصبي يتفق مع شلي في هذا المنحى . هذا ما نقوله أفكاره عن الشعر^(٢) . وهذا ما ننص عليه قصيدته النموذجية (أغنية في ليل استوائي)^(٣) ، وهي قصيدة* تتصاعد نصيا بما أنها أغنية تحدث في الظلمة (الليل) وفي خط الاعتدال والتعامد الكوني (الاستواء) . وتشرع القصيدة بالتوتر والتهيج الانفعالي من أول بيت فيها حيث تنفجر من الوهلة الأولى :

فقل لي إنه القمر !

وتتكرر هذه الجملة ست مرات ، حيث فتحت القصيدة كبداية ومطلع ، ومرت عبرها خاتمة لخمس مقاطع منها ، لتنتهي بها ختاماً ، فتكون أول بيت وآخر بيت حيث يتحقق (الاستواء) خط البداية والنهاية أو خط اللا بداية واللا نهاية . ومع هذه الجملة تتداخل ثلاث جمل متولدة منها ومتحولة عنها هي :

* راجع النص كاملاً في نهاية الدراسة

فقولي إنه الشجر فقولي إنه الوتر وقولي كيف اعتذر

ومن هنا فإن جملة (قولي) ترد تسع مرات ، بينما ترد كلمة (القمر) ست مرات . وهذان العنصران (قولي والقمر) حكما تحولات القصيدة ونمذجا دلالاتها . وسوف نسعى إلى تشریح هذين العنصرين مع آخرين مهمين في هذه القصيدة - أيضا - هما عنصر الموت والرمل وعنصر اللؤلؤة السمراء .

فقولي إنه القمر !

هكذا تبدأ القصيدة بداية معلقة حيث تشمخ (الفاء) رابطة النص بفضاء الحدث الذي كان ، ولكننا لا نعلم ماهو ، فهي امتداد إنشائي لقول سابق أحدث هذه الجملة وظل ممسكا بها من خلال حرف العطف (ف) : فقولي . ولكن ذلك القول المنتج لهذه الجملة يتوارى عنا بعد أن ترك دليلا يدل على وجوده ، فهو إذا حضور غائب أو غياب حاضر ، مما يحقق درجة (الاستواء) والتعادل بين قطبي الحضور والغياب ، مثلما تعادل كون القصيدة في عنوانها حيث توالدت في ليل استوائي ، وكأن حدودها في الليل براعة في إسدال ستر الاختفاء على نفسها ، ومن هنا توارى الرحم الذي تمخض عنه مطلع القصيدة .

ومن خلال هذا الحضور الغائب أو الغياب الحاضر تأتي جملة (فقولي إنه القمر) على أنها خطاب مباشر من الرجل إلى المرأة ، وهذا يحمل

مفارقة لقصيدة حسين سرحان التي قامت على غير المباشرة (قولاً لذات اللمى) . وللمفارقة هنا وجوه كثيرة ، منها أن القصيبي يخاطب المرأة ذاتها كإنسانة مفردة بينما سرحان يخاطب نفسه لأن الاطلاق المتمثل بالتشبية يلغي تحديد المخاطب ويجعله نكرة أو غير موجود - كما رأينا أعلاه - . وهو حين يخاطب المطلق فإنه يخاطب المذكر لأن الأنثى غائبة بل هي ميتة كما وضعنا . فالحضور عنده ذكوري ، على عكس القصيبي الذي تأتي جملته مرتكزة على حضور المرأة في مقابل غياب الرجل الذي تمت الإحالة إليه عبر ضمير الغائب (إنه القمر) .

كما أن جملة القصيبي كاملة الدلالة لأنها جملة تامة ، أما جملة سرحان فإنها ناقصة ، وهي عالة في معناها على ما بعدها ، مما يجعل المرأة فيها ناقصة مثلما هي غائبة ، ولقد رأينا نقص المرأة هناك من خلال انحاء ذاتها وحلول الصفات محل الذات .

ومن هنا تتحدد الدلالة في قصيدة القصيبي على أنها حضور ومباشرة . وهذا معناه حياة النموذج في مقابل موته عند سرحان ، ولكن هذا الحضور وهذه المباشرة تقف مجردة ، أى أنها غير مقرونة بالفعل ، وهذا ما نلاحظه على القصيدة التي ظلت المرأة فيها صامتة على الرغم من حضورها وحياتها ، ولذا تكررت مناداة الشاعر لها بأن تكسر صمتها وحاول ذلك تسع مرات من خلال ترداد جملة فقولي : فقولي / فقولي . . الخ .

ولهذا تحول الصمت ليكون أجمل من النطق ويستولي هذا الحس عند الشاعر فيعلن ذلك في القصيدة نفسها :

قصيدي خيره الصمت

ولكنه يعقب هذه الجملة الاعتراضية مباشرة بجملة طلبية أخرى من
جل النداء للمرأة بأن تنطق :

... فقولني إنه القمر

ولكن الشاعر غير صادق في هذا الطلب لأنه يعود فينبى المرأة عن
محاولة النطق ويفعل ذلك مرتين متعاقبتين :

أنا ؟ لا تسألني عني

.....

أنا ؟ لا تسألني عني

ثم يقدم لها ما يراه يكفيها عن السؤال :

وحسبك هذه الأنسام والأنغام

والأحلام لا تبقي ولا تذر

ومادامت هذه لا تبقي جوابا ولا تذر سؤالا فهذا حسبها . والرجل هنا
يصبح هو السائل والمجيب مثلما أنه الأمر . وفي حال الأمر يتولى هو إجابة
الأمر أيضا ، ومن هنا يعود في ختام هذه الأبيات ليطلق أمره المتكرر :
فقولني

ويتبعه بالجواب (أيضا) : إنه القمر .

وتنتهي القصيدة بمثل ما ابتدأت به (فقولني إنه القمر) دون أن تنطق
المرأة . فهي إذا قد حضرت والذي تولى إحضارها هو النص ، ولكن
النص نفسه تولى إسكانها وحسن لها الصمت حين جعله خيرا من

القصيد ، وحين راح يشوه النطق ويخوف المرأة منه :

وهل تدريين ما الكلمات ؟

زيف كاذب أشر

به تتحجب الشهوات ...

أو يستعبد البشر

فالنطق واللغة خطر لا يقوى عليه إلا الذكر أما الأنثى فلا شأن لها بذلك ولا حول لها عليه ، وحسبها الأنسام والأنغام والأحلام التي لا تبقي ولا تذر . وبالتالي يكون هذا الحضور هو حضور الغياب أو هو غياب الحضور ، لأن المرأة جاءت خرساء ولم يمنحها الذكر حق النطق بعد .

وهذه هي السمة الدلالية التي تحركت فيها القصيدة بدءاً من غياب السبب وحضور النتيجة في جملة المطلع ، وهذه عقدة دلالية بنيوية اتكأت عليها القصيدة وفي الوقت نفسه تصارعت معها ، وذلك من خلال ابتكار مقدمات سببية متعددة أخذت في تحرير نفسها من كونها ناتجاً يلحق بجملة المطلع إلى كونها مقدمة تسبق جملة المقطع . ولقد حدث هذا في خمسة مقاطع تالية صارت فيها جملة المطلع خاتمة ونتيجة لقول حاضر بعد أن كان غائبا في البداية .

وكذلك سعت القصيدة إلى مواجهة عقدها من خلال تعميق الحضور ، وهو ما سنشير إليه لاحقاً ، ونكتفي الآن بأن نقول إن الصراع حول هذه العقدة الدلالية هو صراع اللا غالب ، وهذا هو ما يبقينا في النص حالة التوتر التي تميز الفن الجيد - كما يؤكد آلن تيت⁽⁴⁾ حينما يتراوح

العمل بين التجريد والاحساس ، ويتأسس حيثذ على (المفارقة بمفهومها الدال على تنامي التنافر والغموض وتقابل المتناقضات .^(٥)) ولسوف نلامس وجوها من هذه المفارقة في نصنا هذا مما ينتج عنه صورة نموذجية للمرأة تفارق النموذج السالف - وإن تداخلت معه في بعض عناصرها .
وأول هذه المفارقات هو أن المرأة السالفة كانت غائبة وغير فاعلة ، أما هذه فهي ذات حضور على قدر من العمق والتكثيف ولكنها ظلت غير فاعلة لأنها لم تزل صامتة .

القمر . .

حين يقول الأخطل واصفا فتاته بأنها :

مهابة من اللائي إذا هي زينت . . تضيء دجى الظلماء كالقمر البدر^(٦)
حيث تقف الأنثى والقمر لتضيئا الظلمة ويصبحا بدرا ، وتتأسس هذه الصورة للمرأة / القمر (البدر) في الشعر العربي ، كما نجد عند الأخطل وعند ابن أبي ربيعة الذي يعطي المرأة نورا يضيء كما هو ضوء القمر :

خود يضيء ظلام البيت صورثها

كما يضيء ظلام الحندس القمر^(٧)

ولكن ابن أبي ربيعة لا يدع هذه الصورة دون مداخلة يفارق فيها ما هو تقليد شعري جمالي ، ويحول هذه الدلالة من الأنثى الى الرجل في بيته المشهور :^(٨)

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

وفي هذا البيت يأتي القمر دالا على الرجل من دون واسطة ، بينما جاء التشابه في البيتين السابقين بين القمر والمرأة من خلال أداة التشبيه ، مما يعني أن المرأة (تشبه) القمر ولكنها ليست هي القمر ، كما أن شبهها به هو في صفة (الإضاءة) على وجه التحديد (والخصر) .

أما الرجل فإنه : القمر ، لا من باب التشبيه أو تلبس بعض الصفات ولكن من باب الدلالة المطلقة . إنه القمر الذي لا يخفى علوا وإضاءة ، وما سوى ذلك من صفات ، حسب منطق النص .

وفي مواجهة هذا الموروث المتقابل يأتي غازي القصيبي سافرا عن وجه خطابه لفتاته بجملته المهيمنة : فقولني إنه القمر .

والقمر هنا هو الرجل . ولكن الأمر هنا يفترق عما هو عليه لدى عمر بن أبي ربيعة ، لأن القمر اسم اطلقتته المرأة على الرجل في بيت عمر ، ولذلك فإنه جاء في بيت واحد مفرد وجاء على صورة احتفالية تحقق فيها للرجل أعلى غايات نرجسيته حين هتف النسوة :

نعم . قد عرفناه . وهل يخفى القمر .

أما في قصيدة القصيبي فإن (القمر) مطلب شعري تتوقف عليه الدلالة كلها ، مثلما يتوقف عليه النص وجودا أو عدما . ولو قالت المرأة للقصيبي إنه القمر لما حدثت القصيدة . ولكنها لم تفعل ومن هنا صار الشعر ، وبسبب ذلك حسن الشاعر لفتاته الصمت ودفعها إليه لكي لا

تنطق بالكلمة الحرام (القمر) فتموت القصيدة حينئذ . فهي على النقيض من شهر زاد التي كان النطق لديها يعادل الحياة والصمت يعادل الموت ، ولذا صوّر الشاعر الكلمات لحبيته بأنها : زيف كاذب أشر .

وفي الوقت نفسه ظل يناديا ويلاحقها بجملته : فقولي إنه القمر ، فهو يطلب منها فعلا لا يريد لها أن تفعله ، وهو يمنح صفة القمر للرجل (لنفسه مثل ابن أبي ربيعة) ، ولكن هذه المنحة لا تتحقق لأن المرأة لم تنطق بها على خلاف فتيات عمر . ونتج عن هذا أن أخذت الجملة بالتردد والتكرار مرة تلو أخرى صانعة النص من خلال تكرارها ومولدة لدلالاته المتنوعة :

فقولي إنه القمر
أو البحر الذي ما انفك بالأمواج
والرغبات يستعر
أو الرمل الذي تلمع في حباته الدرر .

لما لم تتحقق صفة (القمر) تحولت القصيدة إلى (البحر) ، ولما لم يتحقق البحر تحولت إلى (الرمل) .

وهذه العناصر الدلالية الثلاثة : القمر والبحر والرمل / تحمل أمداء شعرية عميقة الجذور ، سأبدأ بالأخير منها وهو الرمل .

ولقد مر بنا منذ مطلع هذه الدراسة ما للرمل من علاقة بالمرأة حيث إنه الخيار المصيري الثاني لها ، فهي إما للزوج (الرجل) أو أنها ستكون من نصيب القوز (الرمل) . ورأينا أن فتاة حسين سرحان لم تكن من قَدَر

الرجل وذهبت مباشرة إلى التراب لتسكن فيه وينظمس أثرها من داخله :

ماكان أحلاك لو لم ينظمس أثر
منك الغداة ولو لم ينطبق بصر
سكنت في القرب بيتا ماتحل له
عري ولا يتنزى فيه مصطبر

وفي هذه المعادلة المصيرية بين الرجل والرمل ، تأتي فتاة القصصي
لتستقبل الخيار الأول وهو الرجل ، ولكن هذا الرجل ليس هو (الستر)
كما يقول المثل الشعبي ، وإنما هو : القمر . إذًا هناك تحول في صورة
الرجل ، ومن هنا فإن البديل له لم يعد هو الرمل مباشرة ، وإنما هناك خيار
جديد يطرأ على المعادلة وهو البحر الممتليء بالحياة من خلال استعاره
بالمواج والرغبات ، فإذا لم تقبل المرأة بالبحر فإنها ستفضي بنفسها حتماً
إلى : الرمل ، الذي صار - هنا - خياراً ثالثاً بعد خيارين مغريين .

ولكن إعادة قراءة الأبيات سوف تحيلنا مرة أخرى إلى الرجل ، لأن
الرمل هنا لا يأتي على أنه عالم منفصل ومستقل عن البطل ، وإنما هو
(دال) مركزي يحيل إلى الرجل وليس بديلاً له أو عنه ، وكذلك البحر
والقمر فهي كلها في موضع (الخبر) صياغة أو حكما ، حيث الرجل هو
المبتدأ المحال إليه بضمير الغياب (إنه) . وليس له من حضور إلا من
خلال الخبر الأول (القمر) : (إنه القمر) أو ما عطف عليه (أو البحر /
أو الرمل) فالمرأة إذا ليست في خيار بين ثلاثة أشياء وإنما هي في خيار بين
ثلاث صفات إما الرجل / القمر وإما البحر / الرجل /

الرمل . وكلها تتضمن صفة الاحتواء ، فالقمر يحتوي المرأة بضياته والبحر بأواجه (ورغباته) والرمل يتضمنها في جوفه . كما أن الرمل يصير قوزا منعطفًا كاهلال فهو قمر من نوع ما - كما رأينا في بداية البحث . وهذا يعني ان الرجل هو كون المرأة ومصيرها ، ولهذا لم يكن من الضروري لها أن تنطق في هذا النص ، لأن الخيارات المقدمة لها تنتهي كلها بنهاية مصيرية واحدة هي : الرجل .

وهذا الرجل يظل من فوقها عبر (القمر) ويتحرك من تحتها عبر (الرمل) ويموج من حوايلها عبر (البحر) . وهكذا يتم إغلاق الآفاق على المرأة التي أصبحت (لؤلؤة) مكنوزة لا حول لها ولا طول إلا أن تتعشق الرجل الذي صار يداهم سمعها مرة تلو أخرى : فقولي إنه القمر .

والقمر عند العرب الأقدمين صفة ذات قداسة تتميز باكتمال الرجولة فهو (الأب) وهو (الثور) وبه يصفون الرجال ويمجدون اكتناهم ورجولتهم^(٩) ، وإذا مانحتوا للقمر ضنما جعلوه تمثال رجل كأعظم ما يكون الرجال - كما يقول ابن الكلبي في كتاب الأصنام^(١٠) . ولعل هذا الخس الذكوري عن القمر هو ما جعله مذكرا عند العرب بينما هو مؤنث عند غيرهم - كما يذكر أحمد كمال زكي - (فقد ظهر أنه أقدر من الشمس على تقسيم دورة الأرض إلى اثنتي عشرة ساعة ، وأنه أكفأ في قياس الزمن ، ومن ثم لا يزال في وسعه أن يهيء مقياسا ثابتا لتنظيم الشئون المختلفة^(١١) .

ومن تنظيمه للشئون المختلفة أنه أخذ ينظم كون المرأة ويؤطر

وجودها ، فهو بحرهما وهو رملها وهو ضوءها وهو الأمر لها لكي تقول
وفي الوقت نفسه هو الناهي لها عن القول . وهذا هو الاكتئال الذكوري
أمام الأنثى التي وجب عليها النقص في حضرته . هذه كلها دواع توجب
كون الرجل قمرا . فالرجل / القمر لابد أن يكون رجلا كأعظم
الرجال - حسب عبارة ابن الكلبي . وصارت ضفة (القمر) له هو
وليست للمرأة . والشاعر هنا يعيد لهذه الدلالة قيمتها الأولى ويحقق لها
ذكورتها بعد أن تأثت على أيدي شعراء الغزل ، ومن هنا صارت جملة
القمر هاجسا جوهريا للقصيدة تكررت فيها ست مرات ، مما أكد سيطرة
القمر على باقي العناصر واحتواءه لها فتراجع البحر والرمل والشجر
والوتر ليحل القمر محل الجميع ، ويكون هو الصوتيم الذي كتب ذكورة
النص على الرغم من حضور الأنثى .

اللؤلؤة السمراء .

إن كان الرجل قد جاء كامل الرجولة وسيطر من خلال ذكورته ، فإن
المرأة قد جاءت في نص القصيدي كاملة الأنوثة ، وسيطرت من خلال
أنوثتها (وهنا أرمي إلى معنى مغاير لمغنى إنسانيتها) فالمرأة - هنا - ليست
إنسانا ولكنها أنثى فقط . وتتجلى هذه الأنوثة - أول ماتتجلى - من خلال
الحضور النصوبي لها المتمثل في جملة (أيا لؤلؤتي السمراء) وهي جملة
تكررت في النص (ثلاث) مرات في مقابل جملة الرجل (فقولي إنه
القمر) التي وردت (ست) مرات ، أي أن للذكر مثل حظ الأنثيين ،
ومن هنا صار نصيبها نصف مال الرجل : ثلاث من ست .

وجملة (أيا لؤلؤتي السمراء) هي الصوتيم الحايي لكيان المرأة في هذه القصيدة . ومن هذه الجملة نستطيع أن نقرأ صورة الأنثى هنا فهي أولا مناداة بأداة النداء (أيا) أو (فيا) . والنداء يقتضي بُعد المنادى ونأيه ، ويقتضي أيضا وجوده ، ولكنه وجود شبيه بالغياب ، وهذا ما استدعى قيام النداء وتكراره . ومن الجلي أن هذا البعد قد ظل على ماهو عليه من دون اقتراب ويؤكد ذلك أن المرأة لم تتحرك بالفعل أبدا في هذا النص .

والمرأة في هذه الجملة هي لؤلؤة سمراء ، وهذه اللؤلؤة خاصة بالرجل (الشاعر) من خلال إضاقتها إليه (لؤلؤتي) فكأنها ملك خاص . ومن شأن اللؤلؤة أن تمتلك ، مثلها أن من شأنها أن تكون خرساء فلا تنطق ، وبالتالي فإن الرجل هنا تحول إلى (شهر يار) جديد له الشأن وحده .

على أن الإحالة هنا تنطوي على أبعاد شعرية غائرة المدى في الموروث الأسطوري الشعبي حول اللؤلؤة السوداء في منطقة البحرين حيث عاش الشاعر مطلع حياته ، وكذلك اللؤلؤة بعدها العميق في الشعر العربي ، وسنجد ذلك يمثل أمامنا بجلاء في قصيدة الأعشى عن (الدرة الزهراء) التي جعلها شبيها لفتاته ، وهي درة أخرجها غواص دارين البلدة القديمة في البحرين ، وهذا يربط قصيدة الأعشى ربطا مباشرا بالأسطورة الشعبية البحرينية عن اللؤلؤة السوداء ، كما يربطها بقصيدة القصيصي وهذا هو الذي يعيننا هنا ، وسوف أضع جدولا متقابلا بين القصيدتين لتبين منه علاقات المداخلة النصوصية بين الشاعرين ، ومن ثم نستكشف وجوه المفارقة :

القصبي	(١٢) الأعي
أ	أ
<p>أيالولوتي السمراء .. شراعي الموعد الخطر وبحري الجمر والشرر وأيامي معاناة على الشيطان والخلجان والإنسان والأوزان تفتن ... غدا تنادي زورقي الجزر .</p>	<p>كانها درة زهراء أخرجها غواص دارين يخشى دونها الغرقا حرصا عليها لو أن النفس طاوعها منه الضمير لبالي اليم والغرقا في حوم لجة أذي له حدب من رامها فارقتة النفس فاعتلقا</p>
ب	ب
<p>أتيتك .. صحبتي الأوقام والأسقام . والآلام والخور . ورائي من سنين العمر مايعيا به القمر قرون كل ثانية بها التاريخ يختصر .</p>	<p>قد رامها حججا مذ طر شاربه حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا « تسعسع بمعنى هرم وشاب وكبر سنّه »</p>
ج	ج
<p>فيالولوتي السمراء</p>	<p>من نالها نال خلدا لا انقطاع له</p>

ما أعجب ما يأتي به القدر
أنا الأشياء تحتضر
وأنت المولد النضر
فقولي إنه القمر

وما تمنى فأضحى ناعما أنقا

د د

أتيتك صحبتي الأوهام والأسقام
والآلام والخور ...
شراعي الموعد الخطر
وبجري الجمر والشرر
وأيامي معاناة
على الشيطان والخلجان والإنسان
والأوزان تنفثر .

لا النفس توئسه منها فيتركها
وقد رأى الرعب رأي العين فاحترقا
تلك التي كلفتك النفس تأملها
وماتعلقت إلا الحين والحرقا

وقبل عقد المقارنات أشير (بشدة) إلى أن العلاقة بين النصين ليست
علاقة (احتذاء) ولا هي علاقة مجازاة أو استيحاء . وربما قلنا (وقد
نجزم) بأن القصص لا يعي تجربة الأعشى أو يتمثلها وهو يكتب
قصيدته ، وبكل تأكيد فإن نص الأعشى كان غائبا عن (إدراك) القصص
وهذا مامنع الأخير قدرة شعرية حرة على تمثل حالته الإبداعية ، ومن ثم
تمكن من تصوير مسألته العاطفية تصويرا خياليا إبداعيا . وليست العلاقة
بينهما إلا مداخلة نصوصية (Intertextuality) حسب مفهومها
الاصطلاحي السيميولوجي والتشريحي الذي يتمثل المبدأ العام فيه على أن
(النصوص تشير إلى نصوص أخرى ، مثلما أن الإشارات Signs تشير إلى

إشارات آخر ، وليس إلى الأشياء المعنية مباشرة . والفنان يكتب ويرسم ، لا من الطبيعة ، وإنما من وسائل أسلافه في تحويل الطبيعة إلى نص . لذا فإن المتداخل هو : نص يتسرب إلى داخل نص آخر ، ليجسد المدلولات ، سواء وعي الكاتب ذلك أو لم يع^(١٣) .

فالنص إذاً من دون الشاعر (يتسرب) تلقائياً إلى (داخل) نص آخر ، أى إلى عمق الآخر عبر مسار به الخفية والدقيقة جداً . والنص لذا (ليس ذاتاً مستقلة أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى^(١٤)) . وفي هذه العملية المتفاعلة يبرز الموروث في حالة تهيج - كما يقول ليتش - .

إذاً ليست المسألة عملية واعية ولا هي احتذاء أو مجارة ، وإنما هي أعمق من ذلك وأبلغ بما أنها فعل حتمي ذو طبيعة تلقائية لا شعورية ، وهي فعل نصوصي وليست فعلاً بشرياً ، أى أن الكاتب ليس في حالة حضور وتقرير ، بل الحضور والفعل هو للنص (وحده) مع النصوص الأخرى السابقة عليه .

أما وقد عرفنا ذلك وتوثقنا منه فإننا ننظر في النصين معا ، وقد شاطرهما التداخل وسبقهما نص للمسيب بن علس (خال الأعشى) عن الدرة والغواص منه قوله :

كجمانة البحري جاء بها
غواصها من لجة البحر^(١٥)

ولكننا سنكتفي بنص الأعشى لإقامة دلالات التداخل والتي تبدأ في الدرة الزهراء يقابلها اللؤلؤة السمراء . وفيها نلاحظ أن الدلالة تحولت

من (الدرة) إلى (اللؤلؤة) ومن (الزهراء) إلى (السمراء) . والدرة هي (اللؤلؤة العظيمة الكبيرة ^(١٦)) . أي أنها بعض اللؤلؤ وليست كله ، فهي لا تشمل كافة مافي اللؤلؤ وإنما هي ماكبر وعظم فقط . فإذا تحولت الإشارة من الدرة إلى اللؤلؤة فذاك توسيع لمجال الدلالة وإطلاق لمداها مما يجعلها أشمل وأجمع .

ثم إن الدرة عند الأعشى جاءت مشبها بها بواسطة أداة التشبيه (كأن) فهي لذا جزء منفصل عن المرأة ومستقل عنها ، أما اللؤلؤة عند القصيبي فهي تجسيد دلالي مباشر ومتحد مع مدلوله إلى حد الحلول محله والتحرك منه إلى كل مايمكن أن تشير إليه الدلالة بإطلاقه الحر .

كما أن درة الأعشى نكرة ، بينما لؤلؤة القصيبي عرفت من خلال امتلاك الشاعر لها عبرياء المتكلم الملتحمة بها املاء ودلالة .

أما صفة الزهراء فقد تحولت إلى السمراء ، ذاك لأنها مؤنث (أزهر) . وأزهر اسم من أسماء القمر ومن أسماء الثور ^(١٧) . ولقد رأينا - أعلاه - أن القمر في قصيدة القصيبي هو الرجل إذ هو الموصوف بكامل الرجولة . ومن صار هذا وصفه فإنه سيستبد بصفاته ويحتكرها لنفسه ولن يكون من حق المرأة أن تكون (زهراء) فتماثل في الصفة ، ولهذا أصبحت (سمراء) لا (زهراء) . وكذلك صار لها من الجمل الشعرية نصف ماللرجل . أليس هو القمر وهي اللؤلؤة ؟ هو في أعالي السماء وهي في أعماق البحار ، فكأنها أفروديت التي جاء اسمها مشتقا من رغبة ماء البحر - حسبما يقول هسيود ^(١٨) . وحسبنا نقول الأسطورة إذ إن اسمها جاء من (أفروس) بمعنى (زبد) أو (ثيج) وقد ولدت من

البحر . وعلاقة المرأة مع البحر وثيقه إذ هي علاقة أسطورية عريقة مثلها
أن القمر على اتصال أسطوري مع الرجل . ولهذا فإن الرجل تبدى للمرأة
على أنه القمر (أو البحر الذي ما انفك بالأمواج والرغبات يستعر) كما
يقول القصصي الذي يجمع أقطاب الأبعاد الأسطورية لاحتواء المرأة إما
بكونه قمرا كامل الرجولة كأعظم ما يكون الرجال ، وهو القمر
الأسطوري ، أو بكونه بحرا أسطوريا أيضا حيث يستعر بالأمواج أو يزيد
بالثيغ فتخرج من زبده أفروديت أو اللؤلؤة السمراء . فإن لم يكن هذا أو
ذاك فإنه سيكون (الرمل) الذي تلمع في حياته الدرر ، ولن يتخلى في
هذه عن سمته الأسطورية حيث الرمل مهوى المؤودات ومقبرة الدرر
التي تظل تلمع في حياته .

ونص القصصي في هذه التمددات الدلالية يهشم دلالة الأعشى
فيوسعها بعد أن تتحول موادها إلى نوى دلالية متولدة ومتحولة من داخل
النص لتشبك الشعر بالأسطورة والواقع بالخيال والمجرد بالحسي فتحدث
توترا شعريا مكتظا بالدلالات ، ومن هنا فإنه يحتوي نص الأعشى
وينبسط من فوقه ليشمل ما هو أوسع منه مثلما تحررت اللؤلؤة من قيود
الدلالة المحصورة بالدرة التي هي بعض اللؤلؤ وجزء منه فصارت درة
الأعشى لؤلؤة للقصصي .

أما (غواص دارين) فقد صار (قمرا) ونهض من الأعماق إلى
الأعالي . كما أن الإحالة إليه كانت بصفة الغياب عند الأعشى وكذا عند
القصصي فهو (يخشى) والنفس توئسه ، كما أنه القمر بضمير الغائب ،
ولكنه يتحول إلى (أنت) عند الأعشى : (تلك التي كلفتك النفس) .

فهو مخاطب مستقل عن الذات الشاعرة . أما عند القصيبي فهو يصبح (أنا) أى الذات الشاعرة نفسها . وبذا نلمس سمة التوحد والتجسد الشعري عند القصيبي في مقابل الانفصال عند الأعشى ، بدءاً من انفصال الدرة وتجسد اللؤلؤة وامتداداً لحال الذات انفصالاً واتحاداً .

كما أن الدرة صارت زهراء مرة واحدة لا أكثر ، بينما اللؤلؤة تردد وصفها بالسمرء ثلاث مرات ، وهذا ناتج عن حس الرغبة بملاحقة النبض الشعري للدلالة . فالقصيدة التي قامت على انفصال الدلالات وقدرتها على الاستقلال عن بعضها كفاها وصف واحد لمطلبها ، وهذا ما فعله الأعشى مع درته الزهراء . أما القصيبي فقد جاء نصه مبنيًا على تلاحم الدلالات وتجسدها لذا تلاحقت الصفات الموحدة : إنه القمر . ويالؤلؤتي السمرء .

وصفة السمرء للؤلؤة هي صفة ثابتة ووحيدة لم يلحق باللؤلؤة صفة غيرها مما يجعلها جزءاً عضويًا فيها . فهي ليست لؤلؤة فقط كما أنها ليست (لؤلؤتي) فحسب ، وإنما هي (لؤلؤتي السمرء) وهذا هو شكلها وماهيتها التي لا تتحول ولا تتبدل . والسمرء هنا ليست صفة للتمييز بين لؤلؤة سمرء وأخرى غير سمرء ، وإنما السمرء دلالة لازمة جاءت لإظهار الماهية أى أنها صفة ملازمة لطبيعة الشيء الموصوف مثل قولنا البحر المائي التي لا تميز بحراً مائياً عن بحر غير مائي ، ولكنها تقرر ماهية الموصوف ، وهذه سمة فنية كان يتميز بها هوميروس في إلياذته ، مثلما كان يفعل في وصفه لهيلانه بصفة واحدة ملازمة لها لا يريم عنها وهي : (هيلانه ذات الحزام العميق) أو أندروماك (ذات الذراع الأبيض)

ويكرر ذلك بإخلاص كامل للصفة الواحدة (بحيث يولد فينا هذا التكرار إحساسا عميقا بالجمال ، ويطلق هذا الإحساس العنان للخيال لتصور ماشاء من مواضع الفتنة والجمال) كما يقول محمد مندور^(١٩) .

وهذه سمة من سمات تحرير الدلالة وإطلاقها من خلال تعميق الإحساس بالقيمة الشعرية للصياغة ، حين يصبح التكرار لازمة يتواصل نبضها مع القصيدة فيحدث إيقاعا متلاحقا تتوحد معه الدلالات ، ويغلق بنفس القاريء ، فيحسن بإصراره وتعاقبه ، ويتحول التكرار إلى هاجس مستديم يفتح آفاق التصور ويطلقها ، وذلك أمر يمكن حدوثه في نص القصصي مما يجعله إضافة يتحرك الأعشى من خلالها لينبعث من جديد حيا عبر غازي القصيبي الذي تولى استحضاره وتحريكه من خلال تداخل نصيها مع بعضهما .

وهو تداخل يقوم على التحولات الممتدة كما لاحظنا ، وكما نلمس من تحول بيت الأعشى :

قد رامها حججا مذ طر شاربها
حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا

فالحجج التي تسعسع فيها وهرم منها بطل الأعشى تتحول إلى سنين يعيا بها القمر (الرجل / الشاعر) ثم تتمدد إلى قرون يختصر بها التاريخ - كما مر بنا - في قول القصيبي :

ورائي من سنين العمر
مايعيا به القمر

قرون كل ثانية بها التاريخ يختصر

وإن كان بطل الأعشى قد (خفق) واضطرب من مرامه فإن القمر /
الرجل عند القصبي دخل في مواجهة مصيرية أخطر من مجرد
الاضطراب :

وقدامي صحارى الموت تنتظر

وهنا يدخل (الموت) ليكون هذه المرة مصيرا للرجل ، بعد أن كان
سابقا من حظ المرأة ، وهذا يؤسس مفارقة نموذجية عن حسين سرحان
مثلما افترقت سمة السمرة من مجرد صفة للشفة عند سرحان إلى ماهية
مطلقة للمرأة عند القصبي ، وصارت اللؤلؤة السمراء تمسدا حيا
ونموذجيا لذات اللمى .

ومن نتائج دخول الموت صرنا نجد الرجل عرضة للوهن والضعف
وأمكن أن نراه شاكيا باكيا من ضعفه حتى وإن كان قمرا كامل الرجولة :

وجئت أنا
وفي أهدابي الضجر
وفي أظفاري الضجر
وفي روحي بركان ولكن ليس ينفجر ..

.....

... أعتذر ؟

عن القلب الذي مات
وحل محله حجر

فالرجل / القمر يظل بشريا وجسدا قابلا للضعف ولذا داخله الضجر
ومات قلبه ، وبالتالي صار :

أنا الأشياء تحتضر

إنه احتضار الأشياء كلها وهذه الأشياء - كما في النص - هي القمر
والبحر والرمل والشجر والوتر ، وليس لهذه الأشياء ممثلة بالرجل من
مأمل إلا من خلال المرأة/ اللؤلؤة السمراء ولذا خاطبها صادقا غلصا
مستنجدا :

أنا الأشياء تحتضر

وأنت المولد النضر

فقولي إنه القمر !

في هذه الجملة حضرت كافة مناحي الخطاب اللغوي من خلال الضمائر
الثلاثة ، المتكلم : أنا ، والمخاطب : أنت ، والغائب : إنه ، ولأننا
الاحتضار ، بينما للأنثى الولادة النضرة . أما هو فلا وجود له إلا من
خلال (النطق) بالكلمة السحر . وهي كلمة لا تنفذ إلا من لسان اللؤلؤة
السمراء . ولكن هذه السمراء جاءت خرساء لا تنطق ولذا فإن الرجل لن
يكون قمرا . أى لن يكون كامل الرجولة ومن هنا جاء الضعف والوهن
ودامه الاحتضار . وانتهت القصيدة بنذير الموات ! إذ لم تنطق اللؤلؤة
السمراء :

غدا - لا تذكره غدا !

غدا

تنادي زورقي الجزر
ويذوي مهرجان الليل . .
لا طيب ولا زهر
فقل لي إنه القمر !

وتطير القصيدة مع هذا الختام حاملة قدرها الناقص نتيجة لذلك
الحضور الناقص حيث بدا النموذج فيها حيا ولكنه بعيد . . ومن ثم صار
حاضرا شبه غائب ، فالمرأة فيه قد تحقق لها (الحضور) لكنه منحة من
الرجل وليس إنجازا ذاتيا ، وحينما منحها الرجل هذا الحضور سلبها حق
التنطق في حين وهب لنفسه كامل الرجولة ، ولكن كماله هذا انتقض عليه
فعراه أمام الأشياء وحوله إلى رجل ضعيف يواجه الاحتضار ولا منقلبه
إلا المرأة ، ولكن المرأة لا تقوى على إنقاذه لأنها جاءت ضعيفة كما كان قد
أراد لها . ومن هنا وقع الرجل في مأساة مصيرية صنعها لنفسه .

وبذا تكتمل صورة هذا النموذج عن المرأة / الحياة ، أو المولد النضر .
حيث يتحقق لها هذا التصور النموذجي من حيث إنها واهبة الحياة ، بعد
ان كانت مادة للموت . وننتقل الآن إلى صورة ثالثة لنموذج المرأة
الشعري .

الهوامش :

- (١) احسان عباس : فن الشعر ١٧٤ (دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩) .
- (٢) عن أفكار غازي القصيبي حول الشعر ووظيفته الثانوية في حياة العمر ، انظر كتابه : سيرة شعرية ١٠٧ (دار الفيلص الثقافية ، الرياض ١٩٨٠ م) .
- (٣) منشورة في جريدة (الرياض) عدد (٥٣٦١) الجمعة ١٤٠٣/٥/٥ هـ (١٨/٢/١٩٨٣ م) ص ٣٧ .
- (٤) رينيه ويليك : مفاهيم نقدية ، ٤٨٠ (ترجمة محمد عصفور ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٧ م) .
- (٥) هذا هو مفهومها عند كليانث بروكس ، انظر السابق ص ٤٧٥ .
- (٦) الاخل ، ديوانه ٧١٩/٢ (صنعة السكري ، تحقيق الدكتور فخر الدين قبلوة ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩ م) .
- (٧) عمر بن ابي ربيعة : ديوانه ١٠٣ (شرح محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٢ م) .
- (٨) السابق ١٤٣ .
- (٩) علي البطل : الصورة في الشعر العربي ٤٤ ، ١٨٣ .
- (١٠) السابق ٤٤ .
- (١١) احمد كمال زكي : الاساطير - دراسة حضارية مقارنة - ١٠٤ (دار العودة ، بيروت ١٩٧٩ م) .
- (١٢) الاعشى : ديوانه ٣٦٧ (شرح الدكتور محمد محمد حسين الناصر (٥) ١٩٥٠ م) .
- (١٣) هذا هو تعريف شولز ، راجع : عبدالله الغدامي : الخطيئة والتكفير ٣٢٠ ، النادي الادبي - جدة ١٤٠٥ هـ .
- (١٤) السابق ٣٢١ عن ليتش .
- (١٥) اشارة الى الدكتور محمد محمد حسين في تحقيقه لديوان الاعشى ص ٣٦٤ .
- (١٦) المعجم الوسيط مادة (درر) - (اخرج الدكتور ابراهيم انيس وآخرون ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م) .
- (١٧) القاموس المحيط مادة (زهر) .
- (١٨) نقلا عن لويس عوض : نصوص النقد الادبي - اليونان - ٢٢٤/١ (دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ م) . وعن التطور الاسطوري للدرة والمرأة انظر : علي البطل : الصورة في الشعر العربي ٧٧ .
- (١٩) عن هذا وعن صفات الماهية انظر : محمد مندور : الادب ومذاهبه ٢٥ - ٢٧ (مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، دون تاريخ) .

الغنية في ليل الاستوائي

●● فقولي إنه القمر !
أو البحر الذي ما انفك بالأمواج ..
والرغبات يستعر
أو الرمل الذي تلمع
في حبّاته الدرر
لجوز الهند رائحة
كما لا يعرف الثمر
... فقولي إنه الشجر !
وفي الغابة موسيقى
طبول تنتشي ألما
وعرس ملؤه الكدر
... فقولي إنه الوتر
أيا لؤلؤتي السمراء !
يا أجمل ما أفضى له سفر
خطرت .. فماجّت الأنداء .. والأهواء ..

والأشياء .. والصور
وجئت أنا
وفي أهدابي الضجر
وفي أظفاري الضجر
وفي روعي بركان
ولكن ليس ينفجر
فيالولوتي السبراء !
ما أعجب ما يأتي به القدر
أنا الأشياء تحتضر
وأنت المولد النضر
.. فقول لي إنه القمر



أعتذر
عن القلب الذي مات
وحل محله حجر ؟
عن الطهر الذي غاض
فلم يلمح له أثر ؟
وقولي : كيف أعتذر ؟
وهل تدرين ما الكلمات ؟ ..
زيف كاذب أشر
به تتحجب الشهوات ..

أو يستعبد البشر
.. فقول لي إنه القمر !



أتيتك ...
صحبتني الأوهام .. والأسقام ..
والآلام .. والخور
ورائي من سنين العمر ..
ماناء به العمر
قرون .. كل ثانية
بها التاريخ يختصر
وقدّامي
صحاري الموت .. تنتظر
فيالؤلؤتي السمراء ! كيف يطيب
لي السمر ؟
وكيف أقول أشعارا
عليها يرقص السحر ؟
قصيدي خيره الصمت
... فقول لي إنه القمر !



أنا ؟
لا تسألني عني
بلادي حيث لا مطر

شراعي الموعد الخطر
وبجري الجمر والشرر
وأيامي معاناة
على الخلجان .. والإنسان .. والأوزان ..
تنتثر
وحسبك .. هذه الانغام .. والأنسام ..
والأحلام ..
لا تبقى ولا تذر
... فقل لي إنه القمر

*

غدا ! لا تذكره ! ..
غدا
تنادي زورقي الجذر
ويذوي مهرجان الليل ..
لا طيب ولا زهر
.. فقل لي إنه القمر !

غازي القصيبي

١٩٨٣م

١٤٠٣هـ

المجموعة الشعرية الكاملة - ٧٦٥

دار المسيرة - البحرين ١٩٨٧م

كسر الشائيات

أدبية الأدب / أو / وظيفيته

السؤال موجه إلى الأستاذ الناقد الدكتور عبدالله الغدامي . .
 يرى الكثيرون في عطاءاتك النقدية النظرية والتطبيقية الأخيرة
 (وبالتحديد محاضرتك في مهرجان أبها وكتاباتك عن محمود درويش في
 الرياض)^(١) تحولا بينا في تفكيرك النقدي ، بينما يبدو واضحا أن
 مقاربتك لقصيدة (عابرون في زمان عابر) لا تخرج عن مبدأ « القراءة
 الشعرية » التي هي . كما حددتها - قراءة النص من خلال شفرته بناء على
 معطيات سياقه الفني ، وهي قراءة تسمى إلى تجلية حقائق التجربة
 الأدبية ، وإن كانت هذه القراءة لا تخلو بالضرورة من بعض مظاهر
 القراءة الإسقاطية وقراءة الشرح على نحو العرض الذي قدمه تودوروف
 كما ورد في « الخطيئة والتكفير » ، فالتجربة القرائية التي تعيد كتابة النص
 تنبثق من حصيلة ثقافية واجتماعية ونفسية تتلاقى مع نص هو نظيرها في

(١) إشارة إلى محاضرة (ادبنا العربي إلى أين) ملتقى أبها الثقافي ١٤١٠/٢/٦ هـ اما المقالات
 عن درويش فهي المنشورة في هذا الكتاب .

تكوينه الحضاري والشمولي حيث تظل اللحظة التاريخية تشكل الخلفية الأساسية للنص والقراءة على حد سواء حتى بعد افتراض موت المؤلف ، ومن ثم فإن الانطباعة التي توميء إليها قاعدة أو مبدأ التوازن الانعكاسي « وذلك مهما قيل عن ارتكازه على ظواهر موضوعية » مدخلا لفهم النص (أو مقارنته إن شئت) ، من هنا كان إبداعك النقدي الأخير منسجما مع مقولة البحث عن عناصر الغياب في النص ، وهو غياب متفاوت في مدى حضوره النصي (إذا صح التعبير) ، وفي مدى الرغبة عند الملتقى لتمثله وادعاء القبض عليه أو مطاردته .

أرجو أن تتفضل بتوضيح ماقد يشكل على المتلقي لجهودك النقدية الثرية من فهم لطبيعة الطرح الذي مثل في محاضرة أبها ، حيث يفهم أنك قد عدلت عن مبدأ « أدبية الأديب » أو « نظرية القراءة » كما بسطتها في كتابك « الخطيئة والتكفير » ، وهل أحدثت الحوارات المستفيضة التي أثرتها بهذا الكتاب شيئا من التحول في نظرتك إلى دور العمل الأدبي أو طبيعته ، علما بأنني أرى أن مبدأ الإشارة العائم يصلح تفسيراً لكل التحولات والتطورات ، فهل هو كذلك فعلا ؟ مع خالص شكري وتقديري .

محمد الشنطي (١)

(١) الدكتور محمد صالح الشنطي ناقد عربي متميز له إسهاماته الواسعة في دراسة الأدب الحديث ، وركز كثيرا على القصة القصيرة والرواية في المملكة العربية السعودية ، والقصيدة المهاجرة ، وهي القصائد الفلسطينية المناهضة . كما أن للدكتور الشنطي نشاطا صحفيا ومنبريا في كتاباته ومحاضراته في الأندية الأدبية ، مما يجعله ناقدا فاعلا ومؤثرا ، وقلمه هو أحد الأقلام الفاعلة في ساحتنا الأدبية ، وله حضور نقدي عربي من خلال إسهاماته في مجلة (فصول) ببحوث نقدية عن الأدب في فلسطين وفي السعودية . يعمل أستاذا في الكلية المتوسطة بحائل .

عبدالله محمد الغدامي

إلى الدكتور محمد صالح الشنطي

وإلى الأستاذ حسين بافقيه^(١)

« وما زال في الدرب درب ...

لنمشي ونمشي

إلى أين تأخذني الأسئلة

أنا من هنا

أنا من هناك ...

سأرمي كثيرا من الورد قبل الوصول

إلى وردة في الجليل »

محمود درويش

كنت أهم بالكتابة عن مقالة الأستاذ حسين بافقيه التي حاور فيها
محاضرتي بأبها (أدبنا العربي إلى أين ؟) ، وبينما أنا في هذا الصدد إذا
بالصديق الدكتور محمد صالح الشنطي يداخلني بملحوظته (وليس
سؤاله) الهامة .

ولكي أضع الأمر في إطاره فإني أحيل إلى مقالة بافقيه في عكاظ
١٤١٠/٢/٢٩ هـ ، والتي فيها يطرح وجهة نظر تميل إلى تأكيد (أدبية
الأدب) في مقابل مضمونيه . وقد أقول إنها تميل إلى (إعادة) تأكيد هذه
الأدبية . وهي إعادة للتأكيد لأن القول بأدبية الأدب لم يعد أمرا يحتمل
الجدل واختلاف وجهات النظر . والذين مازالوا يترددون حول هذه

(١) حسين بافقيه أديب شاب يملك قلمنا نقديا متميز السمات ، له كتابات واعية في النقد وقراءة
التراث ونقد النقد .

المسألة هم الذين ناموا على آذانهم وفاتهم إدراك حقائق الجدل النظري الحديث . ومن هنا فإنني أقرر مع الدكتور محمد الشنطي ومع الأستاذ حسين بافقيه أن الأدب هو نشاط جمالي أدبي ، ولا تتحقق له صفة الأدب وسبأته إلا من خلال الأدبية بكل شروطها الجمالية بدءاً من البلاغيات العريقة إلى الأسلوبيات الحديثة . وهي جماليات جرى الاصطلاح الحديث على وصفها بالشاعرية . وهذه مسألة من المسائل الأولية بوصفها أحد المبادئ الأساسية في نظرية الأدب .

ولكننا هنا وبعد أن قررنا ذلك نأتي إلى مواجهة سافرة مع المبدأ ذاته . ذاك لأن مفهوم (أدبية الأدب) هو مفهوم نصوصي يدخل في منظومة الفكر النصوصي الحديث . وهي منظومة تقوم على أسس وركائز واضحة ، ومن هذه الركائز أن النص الأدبي يقوم على (بنية ذات نظام) وهذه البنية لا تتكون من شكل فقط ولا من مضمون فقط ولكنها تتكون منهما معا . والنظام في هذه البنية يقوم على حركة العلاقات في البنية ما بين الدال والمدلول من جهة وما بين الدوال مع بعضها البعض من جهة أخرى . ومن خلال هذه العلاقات يأخذ (الشكل) بالتحول والتولد ويتم إفراز المضمون الذي هو الدلالة الناتجة عن ذلك التفاعل . وهو تفاعل لا يتم إلا من حركة العلاقات مما يعني أن الأشياء والعناصر لا تتأني قيمتها من سمة جوهرية فيها ولكن من خلال دخولها في علاقات من نوع ما . وهذه العلاقات بنوعيتها هي التي تحدد نوعية الناتج الدلالي مما يعني أن المضمون دائماً متحرك ومتغير وغير ثابت ولكنه نتاج قابل دائم للإنتاج وإعادة الإنتاج وهو إذاً غياب بينما الشكل حضور وثبات ووجود .

تلك هي حال (البنية ذات النظام) والأدب هو كذلك . وبالتالي فإن

(أدبية الأدب) لابد أن تكون بنية ذات نظام . وذلك لكي لا تكون فكرة هلامية غير قابلة للتشخيص .

وإذا اشترطنا فيها ذلك ، أو افترضناه ، فهذا معناه أننا نحكم فيها ماسبق أن وضعناه من شرط على مفهوم البنية وهو أن قيمتها ليست في جوهرها ولكنها في ماتؤسسه من (علاقات) ، وهي هنا علاقات (مابعدية) أى فيما تدخل فيه من فعل وتأثير وتفاعل مع سواها من الأبنية الذهنية والنفسية والاجتماعية والحضارية . والأدب - هنا - سيكون بنية جمالية (شاعرية) تدخل في علاقات تفاعلية مع الحياة . ومن هنا يتسنى لنا كسر واحدة من الثنائيات العنيدة ما بين أدبية الأدب أو وظيفيته وهي ثنائية ظلت في حالة تعارض وتقاطع على مدى زمن الجدل النظري القديم والحديث ، مما أفرز تلك المقولة الغبية عن كون الفن للفن أو كونه للحياة ، وهي مقولة لابد أن تتهاوى وتسقط الآن لكي يكون الفن للفن وللحياة معا وفي آن واحد . وهذا لا يجعلنا نتنازل عن جماليات الأدب ولا عن أدبيته . بل إننا نؤكد لها ونصر عليها ولا مجال عندنا البتة للتساؤل حول هذه المسألة . ولكننا نقول إن الأدب - وهو أدب - ليس سوى بنية ذات نظام ، ونظامها هذا يؤسس لها وظيفة إنسانية من خلال فعلها المؤثر . فالأدب هو فيما يحدثه من أثر وما يؤسس من انفعال وهذه هي الجمالية . ومنها وبها يكون للأدب دور في الفعل الإنساني من جهة العلاقة المتولدة ما بين اللغة والإنسان والعلاقة المتولدة ما بين اللغة واللغة (أى النص والنصوص الأخرى ، على مبدأ تداخل النصوص) . وهذا يدخل النص الأدبي في منظومة من العلاقات المتداخلة مع اللغة والإنسان والأمة بأكملها في ماضيها ومستقبلها . وهذا هو ما كنت أعنيه بالجمالية الوظيفية . وهي

ليست مسألة خيار بين الأدبية والنفعية ، ولكنها تأكيد للأدبية من باب إدخالها في طور الوظيفية الفاعلة . مما يجعلني على قدر من الوضوح مع نفسي في أن ماكننا نفعله - جميعنا - على مدى السنوات الخمس الماضية هو تأسيس لمرحلة آتية من الفعل الإبداعي من الممكن أن نسميها مرحلة ما بعد الحداثة .

ولن يفوتني أن أسجل باعتزاز منتشر أن ماأوصلني إلى هذا الوضوح النظري هو الانتفاضة الفلسطينية المباركة ، هذه الانتفاضة التي عم أثرها حتى بلغ أعماق نفوسنا فجعلتنا نغير من الداخل ونتفرض من داخل أرواحنا لنحاول اكتشاف ما عندنا وتطويره لكي يكون أداة للفعل والتأثير . والانتفاضة - هنا - هي أعظم نص كتبه الإنسان العربي المعاصر . إنه نص جميل وفاعل أفلا يكون بمقدورنا أن نجعل لغتنا مثل حجارتنا جميلة وفاعلة . هذه هي مرحلة ما بعد الحداثة .

وللدكتور الشنطي خالص تقديري على سؤاله التوضيحي وأقول التوضيحي لأنه طرح القضية والحل في مقولة واحدة ، وكذا أشير إلى الأستاذ حسين بافقيه الذي عزز مقولتي بمعارضتها من دون مقاطعتها ونحن ثلاثتنا - أولاً وأخيراً - في خندق واحد . والتوفيق بيد الله له الجلال والإكرام .

عبدالله محمد الغدامي

الرياض ١٤/٧/١٤١٠هـ

ذات الربة الخاصة والحب

« تذكرني :

أن الجرح عندما يتعب من البكاء

يبدأ في الغناء

تذكرني :

أن اليأس في سبيل الإنسان

أعلى مدارج الأمل »

غازي القصيبي

الترايبية ، منيرة الغدير :

« الترايبية » قصة قصيرة لمنيرة الغدير نشرت هنا في جريدة الرياض في ١٠ رمضان ١٤١٠ هـ ، ولقد فاتني أن أقرأ القصة يوم نشرها وكان من الممكن أن تمر دون أن أراها ، ولكن مهاتفة من الأستاذ سعد الحميدين لفتت نظري وجعلتني أتدارك الأمر وذلك أن سعدا سألني عن رأيي في القصة ، فقلت له إنني لم أقرأها ووعده أن أعود للجريدة وأقف على القصة .

أما لماذا لم أقرأها منذ البداية ، فالسبب أنني ما زلت أحرص على سلامتي العقلية والذوقية من عواقب قراءاتي المتتابة لأعمال قصصية في جرائدنا ، لا أقول إنها تصيينا بالغثيان ، ولكن أقول إنها تفسد عقولنا وأذواقنا وتفسد حيواتنا مثلما تصيينا بخيبة الأمل وتخيفنا على مستقبل أبنائنا وذائقتهم الكرتونية ، ولذا فإنني حرّمت على نفسي قراءة الفاسد والتافه لكي لا يمتليء جوفي بهذا القبح - كما ورد في الأثر الشريف - ولكي لا يمتليء إنائي منه ، والعرب تقول : كل إناء بما فيه ينضح . ولكن أحمد الله أن منيرة الغدير ليست من هذا النوع وإنما هي علاج ناجع ضد ذلك الترهل والفساد وأراني هنا ميالا إلى لفت نظر الناقد عابد خزندار إلى قصة (الترابية) ، ولابد أنه قد مرّ عليها دون أن يقرأها ، فهو مثلي يحرص على انتقاء ما يدخل إلى رأسه ويخاف من الفاسد والمترهل ، ولكن هذه القصة مادة أدبية راقية ولسوف تكون شاهدا على كثير من مقولات عابد حول (تداخل النصوص) وحول الكتابة عن اللغة وعن الذات وعن الزمن الضائع واللغة الصامتة . ولعلنا أنا وعابد نحتفل بالترابية مثلما احتفلنا بلؤلؤة القصصية .

على أنني أعلن منذ البدء أن قصة (الترابية) نص من تلك النصوص المفتوحة متعددة الوجوه والقراءات والتأويلات . وهي - عندي - تحتاج إلى كتاب كامل لأنها تفتح للغة آفاقا إنسانية رحبة ، ودرجات التداخل فيها تصل إلى حدود من التركيب والتعقيد (نقيض التبسيط) تجعلها تتمرّد على كل محاولة للحصر والضبط . وهي من ذلك النوع من الكتابة التي تؤسس مجالا للتفكير النظري والتبصر التأملي بحيث إنها تكون بمثابة المشروع الفكري والعلامة الشرود والذال العائم . إنها نص للنقد

وليست عملاً للقراءة . إنها مادة للتعب ، وليست سلوة واسترخاء وتمددا . إنها أشبه ماتكون بساراسين التي جعلت رولان بارت يكتب مائتي صفحة عن قصة من عشرين صفحة (انظر الخطيئة والتكفير ٦٥ - ٦٨) وعلى من أذهله ذلك أن يتذكر أن ابن قيم الجوزية كتب ألف صفحة عن آيتين من آيات الله وانظر كتابه (مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين) . وإني لأشعر أنني بحاجة إلى كتاب عن (الترابية) وكتاب عن (ديوان العروى) .

وكم أتمنى أن لو فعلت ، وستظل هذه رغبة تبقى مع غيرها من رغبات النفس مستكينة لتوفيق الله سبحانه وتقديره ، وما في اليد الآن هو كتابة مقال تدشيني يرضي بعض مافي النفس والباقي له زمنه وظروفه ودواعيه .



وقصة الترابية هي حكاية (ذاكرة) تغادر المكان والزمان بعد ان تتخلص من شروط الوقت وشروط الحيز . والذاكرة بطبيعتها هي أنثى ذات وجود عائم ولهذا الوجود شروطه الخاصة به . فالذاكرة علامة على الإرادة والرغبة وهي في الوقت ذاته نقيض لها . إننا كبشر نتذكر ما نريد ونحاول نسيان ما لا نريد ، ونحن غلي هذه الرغبة على ذاكرتنا ولكن الذاكرة تتصرف بطريقة تخالف إرادتنا وتتفق معها في وقت واحد . إن الذاكرة نشاط فطري تلقائي يجارينا ويؤالفنا ولكن لا ينصاع لنفس المنطق الذي نريده لأنفسنا . ومن منا يستطيع السيطرة على ذاكرته ؟! إننا نود دائما تذكر بعض الأسماء وبعض الوجوه وبعض الأحداث ، ولكننا لا نجد لها عيانا على صفحة الذاكرة . وهذا لا يعني أنها مححوة من ذاكرتنا ،

ولكنه فقط يعني أن هذه الذاكرة لا تستجيب لنا إلا بشروط تخصها هي وتجاري مزاجها الخاص في العطاء أو المنع ، وعلامة ذلك أننا إذا بذلنا جهداً في الاستدعاء والاستحضار أو بالعودة على شاهد مكتوب أو استمعنا بصديق يللم خيوط الذكرى فإننا حينئذٍ نجبر ذاكرتنا على الحضور والاستحضار . ولهذا الموقف ما يناقضه تمام المناقضة إذ قد نرغب في عدم التذكر ، ولكن الذاكرة تواصل مدنا بما لا نرغب فيه .

وهذه هي حكاية (الترابية) إنها (الذاكرة) هذه الأنثى العجيبة التي تفر من صاحبها وتتحول إلى كائن حي يحمل ذاكرة أخرى هي ذاكرة الذاكرة ، ولكن ما الذي يجعل هذه الأنثى الذاكرة تفر من مكانها ومن زمانها ؟ هذا هو سؤال النص أولاً وهو أطروحة النص ثانياً . نحن لا نفر من الزمان والمكان إلا من باب إدانتها وإعلان عدم صلاحها هذه الذاكرة الرملية .

والقصة تشير إلى أن هذه الذاكرة الحية قديمة جداً وعريقة في قدمها وهو تاريخ يبلغ حداً أسطورياً ذا ملامح شعبية فهي تقول عنها :

(كانت تقف داخل بيت طيني كبير ، لكن جدرانها تداعت بشكل مفاجيء ، وظهر شارع أسفلتي ، ثم رأيتها داخل قلعة بحرية حولها عشرات من طيور الماء المذبوحة وشباك جافة إلا من ذكرى قديمة لزبد عتيق) .

في هذا المقطع نتعرف على (ذاكرة) ليست بغريبة علينا في البداية . تلك التي تداعت جدران الطين من حوالها وفاجأها شارع الزفت . تلك ذاكرة نعرفها ولقد شهدنا مأساتها ولمسناها ، ولكن هذه (الذاكرة) تحيلنا

إلى جيل سابق حيث الذاكرة الأم في القلعة البحرية وحولها الطيور المائية المذبوحة ، وهذه ذاكرة أسطورية لا نعيمها نحن ولم نشهد كارثة الطيور من حولها . لقد كان لزاما على الذاكرة أن تنفصل عنا وعن شروطنا الظرفية لكي تكون قادرة على تصور ذاتها في شريط تاريخها السلالي الممتد ، وهو شريط يمتد ويمتد إلى أن يوجد هذه الذاكرة ذكرى خاصة بها وهي (ذكرى قديمة لزبد عتيق) حيث تدخل الذاكرة إلى أعماق زمنها الأسطوري السحيق في مواجهة (أفروديت) الرمز العتيق للخصوبة والجمال والحب ، وهو اسم مشتق من (أفروس) بمعنى زبد أو ثبج وهو زبد البحر الذي خرجت منه تلك الأنثى الرمز . هذا تاريخ رمزي لا تملكه نحن ولا نعرفه ، ولكن (الذاكرة) البطلة تهرب منا لتعيده إلينا على صورته (المجازية) التخيلية . ولا ريب أن المجاز هو الأصل وكما يقول التشريحون (في البدء كان المجاز) ، وكل بدء هو بالضرورة مآل حسب سنة الله في عباده الذي سن لنا وفرض علينا العودة الكبرى « إن الله وإنا إليه راجعون » . نحن له ونحن عائدون إليه . والذاكرة هنا أخذت خطها الطويل في العودة هاربة من الحاضر إلى زمن الطين ومن ثم إلى زمن الماء والبحر ومن بعده إلى رمز الزبد العتيق .

عادت تبحث عن الخصوبة والماء والحب . ولكن هذه الذاكرة ليست رمزا هلاميا إنها صورة يعرفها كل واحد منا وكأنها جزء منه أو هو بالأحرى جزء منها إنها :

(امرأة سمراء جذابة ، غامضة . . هي امرأة انبسطت فيها التجربة على شكل غير معتاد . . امرأة احتضنت ليالي من التمزق أنجبت وبكت وارندت الفراق وفي وجهها رغبة ومجد غائب) .

من منا يستطيع التذكر لهذه الصفات ؟ إنها صفات نعرفها في كل واحد منا ومن عرفنا من حولنا . . ألا نعرف السمرء الجذابة الغامضة ؟ ! ألا نعرف التي انبسطت عليها التجربة على شكل غير معتاد ؟ ! ! أليست هي من احتضن ليالي التمزق ؟ ! أليست هي من أنجب وبكى ؟ ! ثم أخيرا أخذت الفراق رداءً لها وغادرت المكان والزمان ومنها الرغبة والمجد الضائع ؟ ! .

لقد غادرت لتبحث عن نفسها في الطين وفي البحر وفي الزبد : في التاريخ . إن مكانها هو في الماضي حيث المجد الغائب ولقد غادرتنا إليه . ومن هي هذه الذاكرة ؟

إنها صاحبة التيجان البيضاء :

(تيجان بيضاء مختلفة تفاصيلها وبينها تاج أسود كأنه قبعة امرأة بقيت من عصر قديم) .

هذه الذاكرة صاحبة المجد والتيجان تفضي إلى منح القاصة واحدا من هذه التيجان :

(تلمس تيجانها المصفوفة ، أشعر أن يدها تعرف قصة كل تاج ، تعرف إن كان ذكرى زغردة أم جرح منحتني أحدها وضعت فوق رأسي . . . تلملت أخذته ووضعت بهدوء فوق الرف ، ثم وضعت آخر فوق رأسي) .

هذا مقطع له أهمية مصيرية للنص . فالمرأة صاحبة التيجان هي (الذاكرة) المهاجرة نحو الماضي والخصوبة ، ولكنها حينها رأت (الكاتبة) دخلت معها في (حجرة خالية إلا من جسدي شبحين انفصلا

عن تاريخ المدينة وناسها) . ومن هذا الانفصال يحدث الدخول ، لقد انفصلت المرأتان عن العالم ولكنها دخلتا في بعضهما (امرأة تخلق داخل رأس امرأة) ومن هذا الدخول والتحليق (تنهمر تواريخ مدخرة تقطر نسيانا على لا مبالاة) وهما معا (ذاكرتان تستبدلان الأمكنة) حيث تتحول المرأة الحقيقية إلى أنثى مجازية : ذاكرة ، وتتحول الذاكرة إلى امرأة وهنا يحدث النص .

(أشارت إليّ بذاكرتها . . استقبلت لغتها الصامتة ، جاءني التذكر أو هو التخيل أو خلق اللغة ، أو الاستماع إلى سرد ذاكرتها داخل ذاكرتي ، . . . كأنها منامات تزورني وأنا نصف نائمة) .

في هذا المقطع ترجمة لحركة إهداء التاج حيث تقوم الذاكرة بإهداء إحدى التيجان إلى الكاتبة فتمنحها بذلك اللغة والتخيل ويكون النص . ولولم تحدث عملية الإهداء تلك لما كان النص ذاك لأن التاج هو مفتاح اللغة هو الكلمة البدء وهو الخيال واللغة الصامتة . إنه حركة الذاكرة على اليد .

ولقد أشار النص إلى أن اليد قد أخذت في تلمس التيجان وهي يد تعرف كل تاج وتعرض قصته ، وإشارة النص إلى اليد كفاعل مع التيجان هي رمز لتحويل الذاكرة من حالة الهيام إلى القلم والكتابة التي كانت اليد رمزا لهما مثلما كان التاج رمزا للغة ولعودة الذاكرة للحديث عن معضلتها مع الظرف الإنساني الحاضر . ولقد قامت الذاكرة بتحميل الكاتبة مسؤولية الإفصاح عن مأساة ذات المجد الغائب وصاحبة التيجان المخزونة في النسيان . ولكن الكاتبة وهي تستجيب لمسئوليات الأمانة

المعروضة عليها لا تأخذ الأمر كما ألقى إليها بتسليم مطلق ، إنها ترد التاج وتستبدله بتاج آخر هو من اختيارها هي وليس مفروضا عليها مما يجعل النص صوتا للذات الكاتبة مثلما هو استجابة للذاكرة ذات الرغبة والمجد الغائب . وبما أنه كذلك فإن الكاتبة تتساءل في نهاية النص عن التاج .

(تساءلت : أهولي ؟)

لم تحب ، لم تحرك شفتيها ، لكنها وخزنتني بإحساس عميق بأنه لي ، نظرت إلى وجهي في المرأة .

التاج الأبيض فوق رأسي ، وخصلات شعري تترنح بإهمال .
وجهي أمامي في المرأة .

انتفض ، أدعك عيني : كأن مامرّ حلم) .

لا ياسيدي ، التاج الأبيض ليس لك إنه للتاريخ ، للظرف المجيد ، ولقد امتنعت الذاكرة عن الإجابة على سؤالك تاركة للنص مسئولية حمل الأمانة وحمل التاج الأبيض إلى حين عودة الذاكرة وعودة التاريخ ، وإلى حين حضور (رفيقتك الرملية والتذكر السحري) .

إلى هنا وأقف مجبرا نفسي على الوقوف ، ذاك أن مقالا واحدا لا يمكن أن يفي هذه القصة حقها . إنها قصة تحتاج إلى كتاب كامل يسبح مع تجلياتها ، ولكنني أردت بهذا المقال لفت أنظار القراء إلى هذا النص البديع وإنني أقترح على الجميع العودة إلى جريدة الرياض يوم الخميس ١٠ رمضان ١٤١٠ هـ لكي يقفوا على نص يستحق الوقوف والتعب

والتأمل ، وليس لي على هذا النص إلا الإعجاب الجم لولا ملاحظة واحدة تمس هذه الظاهرة الإنشائية التي سادت أخيرا في القصة القصيرة بعامة وهي تجاهل أدوات الربط كحروف العطف والأدوات المساعدة مثل ربما ، حيث ، لأن . . إلخ وهي أدوات تقيم التماسك والتساوق في النص العربي على خلاف ما هو حادث في الانجليزية حيث الروابط هناك تتم بشكل ضمني فيما بين الجمل . أما في العربية فإن الروابط ضرورية وهي جزء أساس في بناء النص ، ولعل الكاتبة منيرة الغدير تلاحظ ذلك فهي كاتبة متمكنة من أدواتها الفنية وتملك حاسة أدبية راقية جدا ، ومقدرتها على التكنيك القصصي والتداخل السردى تجعل نصها نموذجا للنص الكتابي الحديث في مقابل النص القرائي التقليدي .

الرياض ١٠/١٠/١٤١٠هـ

ديك البحر

احتفالية الإيقاع

يقول روسو (إن المسرح يطهر الأهواء التي ليست عندنا ويهيج الأهواء التي عندنا)^(١) ، وذلك في رأي له حول مفهوم (التطهير) الأرسطي في المسرح ، حيث صارت الملاحظات النقدية تشير إلى أن علاقة الفنون بفكرة (التطهير) ليست سوى علاقة خداعة ، فالأم فرتر أنقذت مؤلفها جوته من الانتحار ولكنها أدت إلى انتحار الكثيرين من قرائها ، وهذا ليس تطهيرا للنفس من عواطفها الهائجة ، ولكنه استنهاض لهذه العواطف المبيئة .

وأكد أقول إن مسرحية (ديك البحر لراشد الشمراني فعلت معنا الشيء نفسه إذ أيقظت فينا ما هو كامن متربص في مسارب أحاسيسنا حول أنفسنا من جهة وما يحيط بنا من جهة أخرى .

والمناحي التكوينية لهذه المسرحية كثيرة جدا ، ولكن أقواها فعلا معنا

(١) شارل لالو : مبادئ علم الجمال ص ٣٦ ترجمة خليل شطا ، دمشق ١٩٨٢ م .

هو تركيبتها الإنشائية من حيث اعتمادها على (الاحتفال الإيقاعي) ، وهي حينما تعتمد على هذا النوع الثري من الإيقاع فإنها تنكيء على حس إنساني عميق يكفل للنص توليد الانفعال والتفاعل لدى المتلقي . ومن شأن الإيقاع أن يدفع إلى الحركة المتجاوبة ما بين الصوت الصادر والحس المستقبل .

ولقد اعتمدت المسرحية على إيقاعات متنوعة ومتداخلة ، وكل واحد منها يصدر عن موروث عميق الأغوار في نفس المشاهد . وهي إيقاعات ثلاثة أولها الرقص الجيزاني ، وما يملكه هذا الرقص من ثراء في الحركة واللون ، ومن غموض في الدلالة ، مما يجعله أشبه ما يكون بنص شعري حافل بالنصوية والإيقاعية ، وهذا عنصر استنهاض نفسي تحدثه حركات هذا الرقص تهتز به القاعة مثلما يهتز به الممثلون ويتحرك معه المشاهد متخلين بذلك عن كل شروط القيد الشخصي والاجتماعي ، فكان نفسه تتحرر من ذاتها ، وتصبح حينئذ مهياة للدخول في تجربة إبداعية تتولى النفس إنشاء علاقاتها معها ، وحينما تتولى النفس البشرية إنشاء علاقاتها مع من حولها فهذا معناه الدخول في شبكة جديدة من الاتصال مع العالم ، وهذا حس لا يحققه سوى (الإيقاع الاحتفالي) مثل الرقصات الجماعية والفنون العمومية التي تتلاشى فيها الفردية ويندمج الفرد في جماعة تحتويه وتدخله كجزء إيجابي منها يسهم في صياغتها وصياغة جماعيتها واحتفالياتها في حين أنها محتوية له وملغية لفرديته . والرقص الجيزاني يحقق درجات عالية من هذا الاندماج والتفاعل ، مما يجعل المسرحية منسجمة مع نبض المشاهد ومع درجات ضغطه الحسي والعاطفي . وهذا هو مدخل المسرحية إلى المشاهد من خلال الطبول والخناجر والألوان ، وهي

عناصر الرقصة الجيزانية ، ولكن هذه الإيقاعية ليست سوى لغة صامتة هي أشبه ماتكون بالشفرة التي تحتاج إلى من يفكها ، والمشاهد كفيل بذلك والظرف يفتح له هذا المجال ، لأن الإيقاع هو أرقى حالات اللغة ، وبالتالي هو أصح وأدق أحوال الاتصال البشري . ومن الممكن جدا الاكتفاء به كعنصر أدائي ودلالي مكتمل الإنشائية . ونحن دائما نشاهد الرقصة الجيزانية مثلما نشاهد العرضة والمزمار وتكفيها هذه المشاهدة لأحداث الاتصال الكامل معنا إما بالاستمتاع أو بالمشاركة .

ولكننا في (ديك البحر) أمام نص مركب ، وهو نص يطمح إلى أن يكون عملا مسرحيا مفتوحا للمشاهد مثلما هو معتمد على موروثه ولذا فإنه يدخلنا من إيقاع إلى إيقاع ، من الرقص إلى الشعر ، وكلاهما نص يعتمد على تعاقب الحركة والسكون وعلى رمزية الدال ، وكذلك على مشاركة المتلقي في الدخول الايجابي والتفاعل . ومن هنا جاء اختيار مقطوعات من قصائد محمد الشبيبي متجاوبا مع الحس الإيقاعي الذي أدخلت المسرحية نفسها فيه . ونصوص الشبيبي تتشابه كثيرا مع الرقص الجيزاني ، ذاك أن الإيقاع العروضي والتوتر النصوي عند محمد الشبيبي هو من القوة إلى درجة تجعل النص يشتبك مع القاريء اشتباكا مهيجا ومثيرا ، وقاريء الشبيبي لا يمكن أن يجد نفسه في حلٍ من النص ، كما أن ثراء الدلالات عنده يدخل النص في حال من الغموض المرجف مما يدفع إلى الحركة والتفاعل ومن ثم التوتر وهذه هي دوافع المشاركة الإيجابية والاحتفالية أيضا .

وهذا أدخل المسرحية في استعارة شعرية تواترت مع استعارة فنية

وأسس لها سياقاً متوتراً حيث أصبحت متورطة مع الموروث ومتشابكة معه في رابط إيقاعي واحتفالي أقل مايوصف به هو : التوتر والهياج .

وهذا يفتح المسرحية على عالم الإنسان ويوغلها فيه ، ومن ثم فإنها ستواجه مصيرها ، إما بالإخفاق المريع إذ ستصبح مجرد نقول تجميعية ما بين الرقص والشعر ، أو تفتح لها طريقاً لأن تكون بواسطة توظيف الموروث الحي في عمل ابتكاري .

وهنا يأتي الإيقاع الثالث ، وهو (إيقاع الدلالة) حيث يتحقق النص بوصفه فعلاً مسرحياً مهيجاً ، وبوصفه خطاباً مفتوحاً له بُعد ثقافي وله مدّ احتفالي . وهذا يوجد للنص سلطاناً من نوع خاص ، وهو سلطان قادر على احتواء المتلقي وربطه باستدارات النص وتحولاته وذلك بعد أن تمكنت المسرحية من غزو مشاعر المتلقي من خلال إيقاعات الرقص ومدخلات القصائد ، وهو فعل أثمر عن مشاهد متحفز وإلى حد ما متوتر . ومن هنا صار للنص وسائل لتوريط المشاهد ولتحويله عنصراً فاعلاً مع حركة المسرحية .

ولنأخذ عنوان المسرحية كشاهد على الإيقاعية الدلالية :

ديك البحر .

ولنأخذ بالاعتبار أن ديك البحر تحول في آخر المسرحية إلى (سرطان البحر) . وهذا الذي حدث هو المسرحية وهو النص وهو الدال الذي يمثل أمامنا ليتحدى الهدوء فينا فيستفز مشاعرنا بدلاً من أن يطهرها كما يقول روسو .

ذاك هو إيقاع الحركة والسكون ، إيقاع التحول من إلى . وليست المسرحية سوى مشهد مرعب لهذا الانقلاب الذي يحول الحق إلى باطل ويجعل الباطل حقا .

ولكي نكشف أبعاد هذا التحول يمكننا الوقوف على هذه الإيقاعية وتأمل البعد الاحتفالي للديك في الموروث الذي تتكئ عليه المسرحية ، وهي كما قلنا مسرحية جاءت تعبيراً عن الموروث وعن الإنسان وارث ذلك التاريخ .

وسوف أبدأ بقصة تراثية عن الديك ، وهي عن ديك اشتهر في تراثنا باسم (ديك مزبّد) (وقصته أنه كان لمزبّد ديك قديم الصلبة نشأ في داره وعرف بجواره فأقبل عيد الأضحى ووافق من مزبّد رقة الحال وخلو بيته من كل مير وخير ، فلما أراد أن يغدو إلى المصلى أوصى امرأته بذبح الديك واتخاذ الطعام لإقامة رسم العيد ، فعمدت المرأة لتمسك الديك فجعل يصيح ويثب من جدار إلى جدار ، ومن دار إلى دار ، حتى أسقط على هذا من الجيران لبنة ، وكسر لذلك غضارة وقلب للآخر قارورة . فسألوا المرأة عن القصة في تعرضها له ، فأخبرتهم ، فقالوا والله مانرضى أن يبلغ حال أبي إسحاق إلى مانرى - وكانوا هاشميين مياسير أجوادا - فبعث بعضهم إلى داره بشاة وبعضهم بشاتين ، وأنفذ بعضهم بقرة ، وتغالوا في الإهداء حتى غصت الدار بالشيء والبقر ، وذبحت المرأة ماشاءت ونصبت القدر ، وسجرت التنور ، وكر مزبّد راجعا إلى منزله فرأى روائح الشواء قد امتزجت بالهواء فقال للمرأة أتى لك هذا الخير ؟ فقصت عليه قصة الديك - الثعالبي ، ثمار القلوب ٤٧١) .

هذه قصة من التراث أسوقها استدعاء للصورة الاحتفالية للديك في حياة كل الشعوب . وإن أى واحد منا يقرأ هذه القصة ليتذكر مباشرة

قصصاً أخرى مشابهة تكون قد جرت له عياناً مع (الديك) مما يعني أن الديك رمز شعبي يعيش في ذاكرة الناس مربوطاً بالزهاء والألوان والفطرة والاحتفالية . وليس الديك سوى صورة جميلة من صور الذاكرة تجعله جزءاً من تكويننا الثقافي والنفسي . وكان عند العرب رمزاً للربيع لتلون نبات الربيع مثل تلون ريش الديك . والذين وقفوا على (مائة عام من العزلة) لما ركيز يعرفون مدى الاحتفالية الشعبية في جنوب أمريكا للديك إلى درجة أن حادثة مصارعة الديكة في بداية الرواية كانت هي النواة التي انشطرت عنها الحكايات كلها وعنها تمخضت الرواية . وكل شعوب العالم تحمل في نفسها رصيذاً حياً وزاهياً يمثله الديك ويرمز إليه .

أما مسرحية (ديك البحر) فقد تأسست على (الديك) بما إنه رمز للربيع والبطء وجالب للخير كما في قصة مزبّد . ولذا فإن سليمان البطل المنتظر (المخبوء بين خيامنا) يذهب مغامراً إلى جوف البحر ليأتي بصندوق في داخله (ديك) هو ربيع القرية ونماؤها وهو خيرها الزاهي . ويوم سليمان بالنسبة للقرية هو (يوم خصوبتنا يوم رجولتنا يوم فحولتنا) .

وهذه الخصوبة والرجولة والفحولة - إذاً - مخبوءة جميعها في الصندوق . هذا هو يومهم وهذا رمزهم . ولكن ما الذي يحدث بعد ذلك ؟!!

يأتي أبو ساعية يلقي نظرة إلى الصندوق ويصرخ : هذا سرطان البحر . وتصرخ القرية من ورائه :

سرطان البحر سرطان البحر سرطان البحر سرطان البحر

ويتحول الديك إلى سرطان ، يتحول الربيع والنماء والزهاء إلى سرطان ، تتحول الحياة إلى مرض ويصبح الداء رمزا بديلا للقرية فينخر السرطان في تاريخ الرجال ، ويتحول كل ماهر رمزي ودلاي إلى فراغ . ويصيب الداء (يوم القرية) الذي كان يوما للخصوبة والفحولة ليصبح يوما للسرطان . ويتجمد الرمز هنا ويتلاشى حينما يتحول الديك إلى سرطان ، ذاك لأن سرطان البحر حيوان بارد فاتر لا يملك ذاكرة ولا يحتوي على تاريخ ، وعنده يتلاشى الإيقاع وتهشم الاحتفالية .

ولقد كانت القرية على مشارف يومها الكبير حينما كانت بين يدي الصندوق ، وفيه الديك جاء به سليمان إليهم وكأنه خاتم سليمان ومفتاح زمان الخصوبة والفحولة ، وكان سليمان قد أدى دوره الرمزي بإحضار الصندوق ووضع بين يدي الأطفال وأبو حريقة ، حيث الأطفال رمز الآتي وأبو حريقة هو صوت الشعر ، صوت النص الحاضر دوما في ضمير المسرحية ، وليس الشعر إلا رمزا للإنسان العربي ولصوته في الوجود ، والعربي لا يدع الشعر حتى تدع الإبل الحين كما ورد في معنى الأثر الشريف - .

ولكن الآتي وضمير النص يتلاشيان بمجرد إشارة قاتلة من (أبو ساعية) يتحول فيها الربيع إلى سرطان ، وينتهي النص في لحظة ظهور الربيع ، فهو ربيع الموت والدمار .

وكان يومهم في البدء يوم احتفال وفرح حيث مناسبة (الختان) الكبير
لسليمان البطل ، الذي تجمعت القرية كلها من أجله ومن أجل يوم ختانه
ليفرحوا به وليرقصوا على مشهد دمائه التطهيرية ، وفي غمرة بهجتهم كان
كل واحد منهم يتمنى أن لو افتدى سليمان كمربون حب وفرح ، لكي
يحققوا لأنفسهم دورا في استعادة الفحولة والخصوبة المفقودة منذ سبعة
أجيال حينما اختفى الجد السابع لسليمان ، ويتمخض الختان الى احتفالية
زاهية نتجت عن الرقص الجيزاني وأصوات أبو حريقة مرددا أشعار
الشبتي :

« أدر مهجة الصبح
صب لنا وطننا في الكؤوس
يدير الرؤوس
وزدنا من الشاذلية
حتى تضيء السحابة
واسفح على قلل القوم قهوتك المرة المستطابة
أدر مهجة الصبح ممزوجة باللظى
وقلب مواجعنا فوق جمر الغضا
ثم هات الربابة -
هات الربابة . »

وجاءت الربابة في صندوق داخله ديك . ولكن الديك يتحول من
ديك الفحولة إلى ديك مخصي يشبه الديك الثاني عند ماركيز في حكاية
الديك المخصي (والحكاية عبارة عن لعبة لا نهائية فيها يسأل الراوي
الحاضرين عما إذا كانوا يحبون أن يحكي لهم حكاية الديك المخصي ،

وعندما يجيبون بنعم ، يقول لهم الراوي : إنه لم يطلب منهم أن يقولوا نعم ، إنما سأهم عما إذا كانوا يحبون أن يروى لهم حكاية الديك المخصي وعندما يجيبون بلا ، يقول لهم الراوي إنه لم يطلب منهم أن يقولوا لا ، إنما سأهم عما إذا كانوا يحبون أن يحكي لهم حكاية الديك المخصي ، وعندما يبقون ساكتين يقول لهم الراوي إنه لم يطلب منهم أن يبقوا صامتين ، إنما سأهم عما إذا كانوا يحبون أن يحكي لهم حكاية الديك المخصي ، ولن يتمكن أحد من الانصراف لأن الراوي كان سيقول له إنه لم يطلب منهم الانصراف ، إنما سأهم عما إذا كانوا يحبون أن يروى لهم حكاية الديك المخصي) ، هذه حكاية الديك المخصي يرويها ماركيز في (مائة عام من العزلة) ، وهي حكاية تشبه ما يمارسه أبو ساعية في سلطته المطلقة التي بها يجعل الحق باطلاً ومن ثم يصبح الباطل حقاً بمجرد سقوط الحق الذي هو إعلان لسيادة الباطل الذي به ظل أبو ساعية مقتدراً وقادراً على أن يصنع من الفسيخ شربات - كما المثل المصري - وبالتالي فإن ديك الخصوبة والفحولة يصاب يوم الختان بأهم مقوماته ويخصيه أبو ساعية ليتحول إلى حيوان بارد فاتر خال من الدلالة ومن التاريخ ، ويفقد إيقاعيته واحتفاليته وتصاب القرية كلها بالسرطان .

هذه هي المسرحية مشهد مرعب للفحولة المخصية وهزيمة الشعر والراث ، ولقد كان الشمراني رائعا في قدرته على توظيف اللغة الفصحى توظيفا شفافيا وأدائيا مما جعلها خطابا مسرحيا حيويا ، واستغل بذلك الحس التصويري في اللغة مع ربطه ربطا إيقاعيا متناغما مع الرقص والقصائد . ولقد استعرضت التفاعيل العروضية للشعر وكلها تدور حول تفعيلتي (فاعلن) و (فعولن) وتفرعاتها ، وهي تفعيلات حركية

ذات تفاوت منسجم وهو تفاوت يفضي إلى تألف من خلال انسجامه مع إيقاعات اللغة الفصحى المحكية في النص ، ومعظم جمل النص تتلامس مع هذه التفعيلات (ولن أفصل القول في هذه المسألة لأن المقام ليس مقامها) . وأشيد أخيرا بقدرة الممثلين على الأداء وعلى تفاعلهم مع النص الفصيح تفاعلا يدل على ثقافتهم الذوقية وكم هو رائع حرف (الرء) على لسان عادل ، وكم هو رائع أن ترى الشعر الحديث بجانب الخنجر الراقص .

لقد قلت للشمراني وقت العرض لو أنني رأيت هذه المسرحية في القاهرة لقلت إنها رائعة وراقية ، وأقول الآن إنني أنظر إلى هذه المسرحية بوصفها نقلة نوعية بها من الممكن أن نؤرخ للمسرح في بلادنا ، ونقول لقد ابتدأ مسرحنا .

أقول قولي هذا وأنا أعني التحولات التي مر بها النص وهي تحولات معلنة تؤكد عنصر الاحتفالية وتشير إلى أن الشمراني رجل يهيمه أن ينتج عملا صحيحا ولذا فإنه يطلع الآخرين على مآلديه ليجعلهم مشاركين في إبداع النص . وكلامي أولا وأخيرا هو عن المسرحية بحالتها الأخيرة كعمل منجز .

تلاوت مقالتي في موت المؤلف

١ - في جدة : موت المؤلف / حياة المؤلف

٢ - الكلمة والسيف

٣ - رسالة في الاصطلاح

١- في جبهة: موت المؤلف / حياة المؤلف

وكل ندوة وأنتم بخير

هل جربنا أن نسأل أنفسنا بعد مشوار طويل من القراءة عن علاقتنا بالمقروء من حيث مصدره وصانعه ؟

هل تساءلنا عن علاقتنا بالمؤلف أو ناقشنا تصورنا له ؟

ربما يكون ذلك قد حدث أو يحدث لكثيرين منا باعتباره هاجسا يمر بالنفس أوقاتا ثم يتسرب إلى مطاوي النسيان ويغيب إلى الأبد .

ولقد أخذتني نفسي إلى شيء من هذا الذي يحضر ويغيب مخلفا بعده هذا السؤال. العجيب عن المؤلف وعن ماهية هذا المخلوق البعيد الذي يكتب من أجل أن نقرأ ، وهو حينها يكتب يمارس مع نفسه لعبة من أطراف اللعب ومن أخطرها في آن ، ذاك لأن المؤلف - أي مؤلف - يخاطب أقواما ليسوا أمامه ، وهو يدرك ذلك تمام الإدراك ، ولذا فإنه يتعامل مع غائبين . وهؤلاء الغائبون سوف يحضرون في لحظة من لحظات تاريخ

الكتاب القادمة ، وإدراك المؤلف لهذا الغياب ، ولذلك الحضور ، هو ما يجعله يكتب بأسلوب مختلف عن طريقة تعبيره الشفوي المباشر ، أى أن الكتابة هنا تختلف عن المخاطبة ، وهذا الاختلاف مقصود ومتعمد يحدث بوعي كامل من المؤلف . ومن هنا فإن الكتابة تتطوي على نوع من الغش المتعمد ولكنه من ذلك (الغش النافع) كما يقول الشيخ الرئيس ابن سينا .

ومادامت الكتابة تحمل غشا من نوع ما فإن القراءة ليست سوى استقبال وامتصاص لذلك الغش ، ومن هنا فإن أى تصور لنا عن (المؤلف) لابد أن يكون بالضرورة تصورا مغشوشا . ولذا فإننا كثيرا مانحس بقدر كبير من التبجيل للمؤلفين الذين لم نرهم ، أو قد نحس برهبة وخوف شديدين لأولئك الجادين من الكتاب ، وتظل هذه الصورة عالقة في تخيلاتنا تصنع تماثيل وهمية لبشر ربما يكونون أكثر بشرية من القراء أنفسهم .

لقد تذكرت هذا وأنا أقف في قلب مدينة جدة الحبيبة بين أعداد النقاد العرب الذين جاؤوا من أقطار الوطن العربي ليشرعوا في (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) في الفترة من ١٠ - ١٤ / ٤ / ١٤٠٩ هـ بدعوة من النادي الأدبي الثقافي بجدة .

وهم كلهم من فئة المؤلفين ، ولكل واحد منهم اسم محفور في ذاكرة الكتابة / القراءة العربية الحديثة ، سواء من هو سعودي القطر أو هو من أقطار العروبة الأخرى ، وبما أنهم مؤلفون فهم - إذا - من تلك الفئة

المتجسدة في الأذهان تجسدا وهيا ، أى أنهم بلغة دي سوسير صور ذهنية تختلف عن الواقع مثل اختلاف صورة الشجرة في أذهاننا عن حقيقتها على الأرض ، أو مثل تصورنا لجزائر (واق الواق) بين ما يحمله خيالنا عن هذه الجزر وبين ما يمكن أن تكون عليه لو أننا رأيناها رأى العين (أقول لو . ولا أدري هل تصدق الحكايات عن وجود هذه الجزر فعلا) .

أما كيف يكون هذا الافتراق بين الصورتين فلست أرى له جوابا أحسن من قصة رواها لي الأستاذ علي العمير قبل سنوات وظلت القصة مطمورة في ذاكرتي حتى حرثتها لقاءات جدة .

يقول الأستاذ علي العمير إنه جاء في مقبل عمره من قرية (الموسم) في الجنوب إلى مدينة جدة ، وكان فتى يافعا من طلبة المعهد العلمي الذين أدمنوا القراءة وطلب المعرفة مما ولد في نفسه شغفا بالكتب (والمؤلفين) وتعلق خاطره بالكتاب وما يمثله ، وبما أن القروي الصافي الفطرة فإنه لم يك يفرق بين المؤلف والكتاب ، واعتاد أن يجد اسم المؤلف مطبوعا على الفلاف وعلى الصفحة الأولى بعد العنوان وبجانبه تاريخ وفاة المؤلف ، هكذا كان كتاب شرح ابن عقيل وكتاب تفسير القرآن لابن كثير وديوان المتنبي وغيرهم ممن هم مثلهم من الأموات ، يتساوى العرب في ذلك مع غيرهم مثل شكسبير ودانتي ممن ماتوا وشبعوا موتا . ومن هنا فإن علي العمير قد استنتج نظرية قرائية مفادها أن كل مؤلف هو بالضرورة ميت وأن الكتاب ليس سوى أثر بعد عين ، ولن يكون من الممكن وجود مؤلف حي جريا على هذه القاعدة .

ولكن الصدمة تقع في جدة حينما وصل إليها هذا القروي ومعه ذاكرته

القراءة المشحونة بصورها الذهنية الخاصة عن العالم ، بما في ذلك أدباء
جدة أنفسهم الذين يفترض أنهم أموات أمثال العواد والأنصاري وعزيز
ضياء ومحمد حسين زيدان ، وهم كلهم كتاب ومؤلفون أى حسب
قاعدتنا أموات ، وتحدث لأديبنا الشاب مفاجأة من مفاجآت المدينة تجعله
يقف وجها لوجه مع مؤلفين أحياء ، ويأخذ الذهول مأخذا يلف رأسه
ويشوش عليه ، فيفسد واحدا من أهم تصوراته الثقافية حيث اكتشف
فاصلا مابين التأليف والموت ، وهو فاصل ينسحب على الكتابة والمخاطبة
والفروق بينهما مثلما يشمل الفوارق مابين الأثر والعيان والصورة الذهنية
مع الواقع العيني .

هذه تجربة فطرية فذة مرّ بها علي العمير (الشيخ حاليا) وهي تشبه
تجربة ذكرها عبدالفتاح كيليطو في مقدمة كتابه (الكتابة والتناسخ)
سأروي بعضها هنا لظرافتها : يقول كيليطو :
« حدث يوما - وهذا منذ مايزيد على عشرين سنة - أن توجه تلميذ من
السنة الأولى للثانوي ، صعبة رفيقين أو ثلاثة نحو أستاذ اللغة الفرنسية
عند نهاية الدرس ، ليلقي عليه السؤال التالي : هل ينبغي عند قراءة كتاب
(رواية) استذكار اسم المؤلف فضلا عن الحكاية ؟ ورغبة في الإفادة
أجاب الأستاذ وأصغى التلميذ للإجابة الطويلة بكل عناية . . لقد كان
تعدد المؤلفين بالنسبة لهذا التلميذ أمرا متعذر الفهم ، ولم يستطع أن يدرك
لماذا كانت الحكايات التي يقرأها والنصوص التي يدرسها في القسم
مبسوقة باسم المؤلف أو ملحقة به . وهو لم يكن ليأبه بهذا الاسم ، وحتى
إذا حدث أن رآه فلم يكن ليبالي به . إنه كان حديث عهد بالطفولة . ولم

تكن لعبه لتحمل اسم صانعتها . كما أن الحكايات التي كان الكبار يروونها لم تكن تحمل اسما ، اللهم إلا نغمة الراوي التي لم تكن لتتبدل ، ولم تطرح عليه مسألة المؤلف إلا عندما أخذ يقرأ الحكايات (الكتابة تولد المؤلف وتُلزم بأخذه بعين الاعتبار) . يعتقد الطفل أن الحكايات تروى ذاتها ، وأنها لا تكون في حاجة كي تصل إليه إلا لصوت الراوي أو للورقة المطبوعة . الحكاية أشبه بالأخرى مثل الماء بالماء : فمهما كان النبع الذي يسيل منه فإنه ذات السائل . وقد يحدث أن يسأل الطفل عن منبع الماء ، لكنه لا يتساءل أبدا عن مصدر الحكاية وأصلها . وفيما بعد ، عندما يدرك أن كل نص لابد وأن يحمل اسما ينهر . غير انه يظل يعتقد لمدة ، قد تقصر وقد تطول ، إن المؤلفين لا تفرضهم ضرورة . وانهم يمكن أن ينوبوا بعضهم عن بعض ، ماداموا أداة طبيعة شفافة في يد روح غامضة تسكنهم ... أ . هـ) .

هذه صورة واهمة من طفل (شاب) عربي في مغرب الوطن تتساق مع صورة أخرى واهمة لفتى عربي في مشرق الوطن مما يحيل علاقتنا الفطرية مع الكتابة والمؤلفين إلى علاقة شاعرية خيالية واهمة ، ولئن كانت جدة هي ماصدم توهمات علي العمير وهشم قرويته فإن جدة تعمل الدور نفسه في أسبوعنا قبل الماضي حين وقف أساتذتنا محمد حسين زيدان وعزيز ضياء يرحبان بالمؤلفين (الأحياء) ويقصان عليهم حكايات الخاطر عن زمن مرّ على بلادنا كان النجباء من يعرب يحلون ضيوفا على الديار فلا يعلم بهم أحد من أهل الدار هكذا جاء شكيب أرسلان وهيكل (محمد حسين) وأحمد أمين قبل سنين فلم يكن لوجودهم حسّ او انفعال وراحوا يرددون صوت الخيبة :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولكن لطف الله يعم ديارنا فتتفتح الظلمة ويحل محلها بساط العلم ،
وتتولى الديار نفسها استقبال ثلاثة وعشرين ناقدًا عربيًا يستقبلهم هرم
بشري يمتد أجيالا من زيدان وضياء بداية وحسين بافقيه وازدهار بشل
امتدادا وانطلاقا . ويتحلق شبابنا حول المؤلفين (الأحياء) يفتحون
معهم الحوار والمناقشة حيث يتحول الذهول من القاريء إلى الكاتب ، إذ
لم يعد العجب والتعجب يصدر عن القراء حيث يكشفون المؤلف ،
ولكن العكس هو ما قد حدث إذ يتمعج المؤلفون حينما اكتشفوا هذا
الجيل المبهج من القراء الذين يعرفون الكاتب وماكتب ويسألون هذا
الكاتب عما كتب . وكانت جدة - مرة أخرى - مصدرا للمفاجأة إذ
اكتشف المؤلفون أن هناك قراء (أحياء) ، وعاد كل مؤلف بذخيرة من
الفرح تكفيه عقدا كاملا . وعدنا نحن بذخيرة من العرفان بنعمة الله
علينا . وإن كان كل واحد من المشاركين قد عاد بفرحه الخاص فأنا قد
عدت بفرح ماكنت أتوقع حدوثه الآن ذاك أنني وقفت وجهًا لوجه مع
أجمل لحظات المعرفة حينما قام أحد طلابي في جدة يحاورني على المنصة
ويقدم لي أغلى هدية تمنيتها في حياتي وهي أن أرى أحد تلاميذي يتجاوزني
ويكون أستاذًا لي . وحينما شرعت برد التحية عليه محاولا أن تكون أحسن
من تحيته . . إذ بي أستلم ورقة من قسم السيدات تقول : حسين بافقيه
ليس وحده . . ولن أسرد بقية الرسالة إذ يكفيني فرحا أن أرى جيل
المعرفة في بلدنا يتمكن من الشروع في تحقيق تنمية ثقافية وطنية مخلصه

يترجمون من خلالها جهود بلادنا ونضالها من أجل تأسيس نظام تعليمي
يفرز ثقافة ومعرفة حضارية بثوابتنا الاسلامية والعربية وتتحرك بها من
أجل تقديم نموذج حضاري معاصر يسهم في بناء الإنسان العربي في محيطه
الواسع ويسهم في تقديم حل أصيل لمعضلة هذا الإنسان في هذه
المرحلة ، وهذا هو المطلب الحضاري المنتظر منا ومن بلادنا بما لها من عمق
تاريخي يؤهلها لريادة معاصرة .
إن شاء الله وكل ندوة وأنتم بخير .

٢ - موت المؤلف

الكلمة والسيوف

مازلت أشفق على كل كاتب ألزمه حفظه الكتابة العمودية الملزمة ، وذلك اعتقاداً مني أن الالتزام المستمر يفضي إلى استنزاف الطاقة الإنشائية لدى الكاتب إلى درجة يفقد معها " به القول ورونقه ، وينتج عن هذا عزوف القراء عن متابعة الأعمدة لما يحسونه من جفاف العطاء فيها . ولعل هذا أحد الأسباب التي تجعلني دائماً أتهرب من الدخول في مأزق الالتزام المستمر في الكتابة .

وعلى الرغم من قناعتي هذه إلا أنني أجد بعض الكتاب يستطيعون إحداث درجة من التماسك ما بين الالتزام المستمر والتجدد المتدفق مما يحقق لهم درجة من (المقروئية) ترسخهم في ذاكرة الجمهور . ولست هنا بصدد ضرب الأمثلة والحصص ولكنني أقول هذا القول لأشير إلى ما استرعى انتباهي مؤخراً وحفزني إلى الكتابة ، وهو ما لاحظته على زاوية الأستاذ محمد رضا نصر الله ، الموسومة بـ (أصوات) ، وهي زاوية أخذ كاتبها برفع درجة الحرارة فيها ربما استعداداً لمواجهة فصل الشتاء . وعلامة

ذلك هو أننا قرأنا مؤخرا خمسة ردود على ما طرح في هذه الزاوية ، وهذه الردود هي شهادة على درجة مقروئية زاوية (أصوات) ، وعلى مقدار تفاعل القراء مع ما يرد فيها من إشارات ومعارف . ومقالي هذا هو استجابة قرائية لواحدة من تلك الزوايا . وبالتحديد هي محاورة لما ورد في كلام الأستاذ نصر الله عن الجاحظ وعلاقته بمفهوم (موت المؤلف) - انظر زاوية (أصوات) لمحمد رضا نصر الله - الرياض - ١٩ / ٤ / ١٤١٠ هـ .

ولقد كانت إشارة الأستاذ نصر الله إلى هذه العلاقة لدى الجاحظ إشارة ذكية ، وتتم عن حدس نقدي لم أملك إلا أن أتجاوب معه في هذه المقالة .
والمسألة تبدأ في موقف الجاحظ من الكتابة ، ومن انتهاء التأليف إلى مصدره الذي أنتجه ، سواء بالسلب أو بالإيجاب .

ولا ريب عند أحد منا أن الجاحظ كاتب عظيم ومؤلف قدير . ومن علامات عظمة الجاحظ هي أنه ذو حساسية خاصة (ومفرطة) حول (الكتابة والتأليف) ولهذا فإنه حرص منذ مطلع حياته على حماية مايكتب وتحصينه ضد كل أنواع العدوان ، وبالذات - في حالته - ضد الحسد والحساد . ولهذا فإنه سعى إلى دراسة أحوال الناس من حوله حتى إذا ما أدرك مقدار مايكتونه له من حسد راح يقطع الطريق على شرهم هذا وصان كتبه من أن تقع في مستنقع الحاسدين ، ومن ثم راح يؤلف الكتب وينسبها إلى رجال انقضى زمنهم وخلفوا ذكرا حسنا يشفع للكتب بأن تمر عبر أزقة الحساد بسلام . وصار ينسب كتبه إلى الخليل بن أحمد وإلى ابن المقفع ويحيى بن خالد والعتابي . وأحيانا ينسبها إلى رجل لا نعرف إلا بعض إسمه ، ولا نغيزه إلا بوظيفته . وهو : سلم صاحب بيت الحكمة ،

الذي جاء له ذكر في فهرس ابن النديم ، إضافة الى ذكر الجاحظ له .
وليس بالأمر الصعب أن تستقريء هذه الأسماء ومانتضي إليه من علاقات
مع الكتب إذ فيها اللغوي والكاتب المنشيء والبلاغي . كما أن فيها الرجل
المجهول إلى حد ما وهو صاحبنا سلم . ولعل الجاحظ قد رغب فيه لأن قلة
اشتهاره بالتأليف تتيح فرصة مستقبلية للجاحظ لكي يسترد العارية . مما
يعني أن الجاحظ لا يقدم على هذا العمل إلا من باب الاضطرار والإكراه .
وهو يقتل نفسه بعد معاناة فادحة يضحي بها بنفسه من أجل كتابه .
فالكتاب - هنا - عند الجاحظ أهم من المؤلف ، والرسالة أهم من
المرسل . ولهذا أثر أن يصل الكتاب إلى الناس بعد أن يدور من حول
الحساد والأعداء دورة تبطل سحرهم وتكيد لهم بدلا من أن يكيّدوا لها .
وهذه معاناة مرّة ذاقها الجاحظ وتجرعها على مضض . ولئن هانت عليه
نفسه مرارا فإنها لن تهون عليه على الدوام .

والقضية دائما على (الكتاب) وليست (المؤلف) . فإذا ما حدث في
يوم من أيام الجاحظ أن قام بكتابة كتاب رآه مادة دسمة تغرى الحساد من
كل الوجوه إلى درجة أن الجاحظ نفسه يتحول إلى حاسد مماثل في مواجهة
هذا الكتاب ، وبالتالي فإن نفسه تأبى عليه أن ينسب الكتاب إلى الخليل بن
أحمد مهما بلغت عظمة الخليل . إن الجاحظ ليحسد الخليل على هذه النسبة
وهذا الشرف . بل إنه يشعر بالحسد أيضا لرجل مغموّر مثل صاحبنا
سلم . إن الكتاب أهم من كل هؤلاء والمؤلف صار يخاف عليه من الناس
ومن نفسه ، ولذا فإن الجاحظ في هذه الحالة يخرج الكتاب إلى الناس من
دون اسم لمؤلفه . إنه كتاب يتيم فهو بلا أب ولا ولي أمر . ولسوف يحتكم

أبو عثمان عمرو والجاحظ إلى الزمن وإلى التاريخ لكي يرد له حقوقه من بين
برائن الحساد والأعداء ومن ظلم النفس لصاحبها .

إنه هنا يميّز المؤلف - حسب دلالات المصطلح الحديث التي أشار إليها
الأستاذ نصر الله بفطنة وذكاء - والموت هنا هو (إرجاء) للعلاقة ما بين
المؤلف والكتاب بحيث يتحقق للكتاب النفاذ إلى القارئ نفاذا مباشرا لا
تفسده الوسائط ولا ملاسبات الظروف . ويكون استقبال الكتاب حينئذ
استقبالا موضوعيا (نصوصيا) لا تشوبه شوائب (الانطباعات) وما فيها
من ذاتية وآنية ومحدودية نفسية وذهنية تورث الجو العدواني الحاسد كما
أدرك الجاحظ بوعي ثاقب وحس حي .

على أن هذا النوع من العلاقة الحساسة فيما بين المؤلف وأعماله لما تزل
طبعاً من طباع البشر ، ذاك لأن (زمار الحي لا يطرب) كما يقول المثل
الشعبي ، ولكي يطرب لابد له أن يتوارى عن الأنظار ويتشع بجلباب
الاختفاء إلى أن يبذل الله الحال بعد أن تكون الأعمال قد وقعت في مواقعها
من نفوس الناس . وما يروى في هذا المقام ماسمعناه عن الفنان (سيد
درويش) الذي كان في مستقبل عمره يصنع الألحان وينسبها إلى سلامة
حجازي وإلى عبده الحمولي ، ليضمن قبول الناس وتقبلهم لها قبولاً
حسناً . وفي ذلك حكم على المؤلف بالموت بمعنى إرجاء العلاقة فيما بينهما
ريثما تصل الرسالة وتحقق وجودها المكتمل في نفوس مستقبلها .

هذا ضرب من وجوه (موت المؤلف) . وهناك ضرب آخر يتم فيه

إلغاء المؤلف إلغاء تاما ومن ثم إحلال مؤلف آخر محله . وهذه عملية كان الفرزدق يجيد ممارستها وتنفيذها . ولقد شهد عليه التاريخ وأثبت أنه قتل ثلاثة شعراء في ثلاثة مقامات متشابهة . وهؤلاء الشعراء هم جميل بثينة وذو الرمة والشمردل .

وتاريخ الأدب يقول لنا إن الفرزدق وقف على جميل والناس مجتمعون عليه وهو ينشد :

تري الناس ماسرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أوماننا إلى الناس وقفوا

وهذا بيت رائع ومذهل فيه قوة وعنفوان . . وقد لا يتفق مع رقة وسهاحة جميل ، ولكنه يصلح للفرزدق ويلائم سياقه الشعري ولهذا فإن التاريخ يقول لنا إن الفرزدق (أشرع رأسه من وراء الناس وقال لجميل أنا أحق بهذا البيت منك فقال جميل : أنشدك الله يا أبافراس . ولكن الفرزدق لم يأبه للمناشدة فمضى وانتحل البيت) ومسح اسم جميل وقتل المؤلف ، وسلطانه هنا هو الحق : أنا أحق بهذا البيت منك . إنه بيت يليق بالفرزدق ولذا أخذه عنوة وقسرا (الأغاني مجلد ٣ ج ٨ ص ١٨٨) .

ويبدو أن الفرزدق رجل متمرس في اصطلياد ما يعجبه من الشعر وهو على استعداد لأن يقاتل من أجل هذه الهواية الحبيبة إلى نفسه . ولقد تورط ذو الرمة يوما فباح للفرزدق بسر من أسرار شعره حيث حكى أمامه قائلا : (لقد قلت أبياتا إن لها لعروضا وإن لها لمرادا ومعنى بعيدا . قال له الفرزدق ماهي ؟ . .) فلما سمعها الفرزدق أطلق كلمة الموت عليها : أنا أحق بها منك . وذلك بأن قال لذي الرمة صراحة ومواجهة (لاتعودن

فيها فأنا أحق بها منك قال ذو الرمة : والله لا أعود فيها ولا أنشد لها أبداً -
الأغاني م ٦ ج ١٦ ص ١١١ - .

وكذا كان للفرزدق موقف مماثل مع الشمردل ولكنه في حالة الشمردل لم يستخدم كلمة الموت المعهودة . ولم يشر إلى (حقه) في البيت . ربما لأنه لا يعطي الشاعر مكانة تساوي زميليه السابقين ، ولذلك فإنه يهدد الشمردل قائلاً له : (يا شمردل لتترك لي هذا البيت أولتترك لي عرضك فقال خذه لا بارك الله لك فيه) فادعاه الفرزدق وجعله ضمن قصيدة له -
الأغاني م ٤ ج ١٢ ص ١١٥ - .

ومن طرائف الشهادات ما جاء في شهادة كثير عزة على الفرزدق وسرقته لبيت جميل ، حيث تقابلاً فقال الفرزدق موقعا نفسه في ورطة تاريخية -
بعبادته - ما أشعر كياكثير في قولك :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى بكل سبيل

ولعل الفرزدق كان يخطط لاختلاس هذا البيت ويوجد لنفسه أسبابا تعينه على السرقة ، وذلك أنه يلمح ويلمز على كثير في أنه قد اختطف هذا البيت من جميل في قوله :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى على كل مرقب

ولكن كثيرا كان على قدر كبير من الكيد والمراوغة يجعله يدرك ألا عيب الفرزدق ولذا أفسد عليه خطته بأن ذكره بحادثة تماثل ما همز به ، فقال له : أنت يا فرزدق أشعر مني في قولك :

تري الناس ماسرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

يشير بذلك إلى سرقة من جميل ، وهكذا تتحول كلمة (أشعر) لتصبح بمعنى (أسرق) وما أشعرك أى مأسرك ، وهذا صراع يجري بين فحول تحيد لغة الأخذ والرد ، لغة الفتك والقتل . لذا انتصرت القوة على اللين ، وهي معادلة فات على جميل وذى الرمة والشمردل أن يدركوها فكشفوا أمر قصائدهم أمام سباع تعودت على النهب ، ولو أنهم عرفوا ما عرف الجاحظ لكانوا نسبوا قصائدهم إلى فحول يحتمون بأسمائها إلى أن يقوى عودهم وتشتد عريكتهم ويكونوا كالجاحظ أقوياء ، لكي يتسنى لهم أن يستعيدوا أشعارهم مثلما استعاد الجاحظ كتبه وأعلن حياة المؤلف بعد أن تحقق غرض الرسالة من دون شوائب . وماضر شاعرا مثل ذي الرمة إلا صغر سنه وسذاجة نظره ، ولأنه لم يعرف خطر الحسد ولذا لم يحتط لنفسه - كما فعل الجاحظ - وفي ذلك يقول حماد الراوية عن ذي الرمة (ماأخر القوم ذكره إلا لحدائنه سنه وأنهم جسده - الأغاني م ٦ ج ١٦ ص ١٠٨) .

هو الحسد إذا هذا الداء الذي عرف الجاحظ كيف يقتله فاخطت لنفسه خطأ ضبط به العلاقة ما بين المؤلف والنص حيث أمات المؤلف وأرجأ العلاقة إلى أن حان وقتها . ولكم كنت أود أن لو تعرضت لمفهوم (موت الموت) تعرضا اصطلاحيا إلا أنني لم أفعل اكتفاء بما سبق أن كتبت في كتابي (الموقف من الحدائنه) ص ٨٣ - ٩٣ .

وأختتم القول بأن أشكر الأستاذ محمد رضا نصر الله الذي أثار في نفسي
الرغبة في أن أقول شيئاً هذه الأيام .

الرياض

١٤١٠/٥/٥ هـ

٣ - موت المؤلف

رسالة في الاصطلاح

عزيزي الدكتور خالد سليمان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

شكرا على رسالتك الكريمة وما حملته من تواصل أخوي في لغتها وفي مرفقاتها .

لقد استمتعت ببحثكم عن (موت المؤلف) الذي أخذ بتلابيبي ولم يدعني إلا بعد أن أتيت عليه قبل أن أغادر موقفي بجانب يريد القسم . ولعل من جوانب الجذب فيه هو رشاقة التناول وخفة المعالجة مما جعل البحث سهل الصعود هنيئ النزول . وهذه ميزة صرنا نطلبها وذلك لخلافة أساليب النقد الحديث في يومنا هذا ، مما جعل الجمهور يشكو ويضج بالشكوى وصار ذلك يهدد (مقروئية) الرسالة النقدية الحالية . وسبب آخر أغراني ببحثكم هو معالجته لمسألة مهمة جدا من مسائل

النقد الحديث ، من باب (نقد النقد) وهذا حقّ معرفي أرى أنه من أهم ما يجب التصدي له - اليوم - من أجل مراجعة الذات ومحاسبة النفس ومساءلة المرحلة .

وإن كنت قد تكرمت عليّ بطلب ملاحظاتي ، فإني أرى أن الملاحظات عادة ليست سوى رؤية أخرى تسير الرؤية الماثلة لا لتقاطعها أو تشاغب عليها ولكن لكي تجارها برأي آخر يهدف إلى المحاوره ، وليس إلى مزاحمة ما قد قيل . والميزة دائما للأول لأنه الفاتح ، أما التالي فإنه يسعى دوما إلى تجنب مزلق الأول فيبدو عليه ظاهريا أنه أقرب إلى الغاية ، وما هو كذلك ولكنه يبنى على أساس قائم من قبل إقامته الرؤية الأولى فأعطته سببا للإفاده ليس إلا .

بعد هذا أقول إن مبحث (موت المؤلف) يأتي عندي ضمن سؤال كلي حول (مصير المصطلحات النقدية عندنا) من حيث تحولاتها وتطوراتها (أو تغيراتها) ما بين وضعها الأصلي وما بين حالها لدى كتابنا .

إنني أؤمن بأن ليس هناك مصطلح كامل . وكل مصطلح هو بالضرورة مشروع مفتوح ، يتغير مع كل تحول يمر عليه من فرد إلى فرد ومن زمن إلى زمن ، ومن لغة إلى لغة . إن مجرد التعريب هو تحويل جذري للتاريخ الحضاري والنفسي للكلمة من عالم إلى آخر . والدلالات الإيحائية والضمنية للمفردات اللغوية تنوف تعلق بالمصطلح وتحوّر منه ، وربما تغيره تغيرا مصيريا . ولتقارن بين كلمة (Deconstruction) وتشرحية وتفكيكية ، حيث الكلمة الأجنبية كلمة منحوتة ، مخترعة . أما الكلمات العربية فأصلية ولذا تحملان تاريخنا سابقا على الاصطلاح في حين أن

الأجنبية تصنع تاريخها الخاص بها لأنها جديدة على معجم لغتها ولا يحصرها تاريخ سابق ثم إنها تحمل فكرة النقض والبناء معا .

de نقض
con ربط
struction من « البناء »

فكأنها فكرة ومقولة أكثر مما هي مصطلح : نقض. هيكل البناء .
(وليس نقض البناء) .

ولئن كانت الفكرة هنا واضحة فإنها مع (موت المؤلف) أبعد قليلا عن غاية الوضوح ، ولكنني واثق أنك تدرك معي الفارق بين هذين القولين :

death of the author

موت المؤلف

إن المؤلف بالعربية تعني من يجمع بين المختلفات فيألف فيها بينها ، والموت عندنا - كمسلمين - هو مرحلة انتقالية إلى حياة أخرى .
أما المصطلح الانجليزي ومثله الفرنسي (؟) فإنه يقدم كلمة **author** ذات الارتباط بـ **authenticity** وهو ارتباط يوحي بفكرة (الأصالة والصدق) . كما أن كلمة **death** تحمل تاريخا ذا عاطفة عنيفة حول الزواج المطلق عند المسيحيين .

Till death do us part

إنه الرباط الذي لا فكاك منه ، وهذا يجعل المصطلح ثورة وتمردا على تقليد قسري من التلاحم المطلق ، مما يجعل مفهوم (موت المؤلف) في

الفكر الغربي مفهوما يرتبط بالتححرر من القيود المفروضة تاريخيا ونفسيا .
أما عندنا فإن الأمر لا يحمل تاريخية هذا الصراع ، ولسوف يكون
المصطلح أكثر هدوءا وأقرب إلى الموضوعية الجمالية الخالصة .

على أنني أسجل هنا - قبل فوات الأوان - ملاحظة أراها ذات دلالة
صحيحة ، وهي أن كلمة (مؤلف) أقرب للموضوعية من كلمة
(author) لأنه لا وجود لذلك الذي يكتب (أصالة وصدقا) كما توحى
الكلمة الإنجليزية وكل كاتب في الدنيا هو (مؤلف) أى جامع
متناثرات ، والإبداع ليس إيجادا للعدم ، ولكنه إعادة صياغة وتأليف لما لم
يؤلف من قبل . ولهذا فإن الكلمة العربية تشير إلى حقيقة الفعل الكتابي ،
بينما تطمح الإنجليزية إلى غاية ليست بالإمكان ، ولن يتسنى قبول دلالتها
إلا بتأويل (الأصالة والصدق) تأويلا يقربهما من معنى التأليف ، ويكفي
أن نرد على فكرة الصدق بفكرة الكذب في الفن وهي شرط أساس من
شروط الإبداع ، أقصد التأليف . ولعل كتاب الناقد عابد خزندار قد
أشبع مفهوم الإبداع موتا حتى لم يعد للإبداع من وجود عنده .
بعد هذا أقول :

إن مصطلح (موت المؤلف) حينما يتم تعريبه يصبح مصطلحا ذا
مفهوم مختلف - بالضرورة - عن حاله لدى أصحابه الذين اصطنعوه .
ولهذا فإن البحث هنا يجب أن يقف على وجوه تحولات المصطلح ومن ثم
تطوره إلى مفهومات جديدة - أو على الأقل : مختلفة .

وهذا الرأى مني يقف في مواجهة ظن يهدد فكرة استقلال العقل

العلمي ، وهذا الظن هو افتراض الالتزام الكامل بالمصطلح الأصلي مما يعني أن المستعير ليس سوى مقلد يغاوي يجرى وراء سابقه دون أن يكون له قدرة على شق طريق خاص به حسب موقفه من المعرفة والعالم ، حسب حاجته لهذه الثقافة أو تلك .

إن المؤلف لكي يكون مؤلفا هو جامع متنافرات ، ولذا فإن المتنافر عند غيره يصبح متآلفا عنده ، ولذا فإنه يجمع ويؤلف لنفسه منظومة اصطلاحية تخصه هو - وإن استعار مفرداتها من مجاميع متغايرة المصادر والمشارب والأزمنة . وهذا الجمع يفضي إلى (اختلاف) عن الآخرين ، وليس إلى (مشاكلة) معهم . وهذا شرط التأليف الصالح ، أما إذا تشاكرت الرؤى واتفق اللاحق مع السابق فنحن حينئذ أمام حالة من التقليد العادي الذي لا عبرة فيه ولا قيمة له ولا لفاعله .

من هنا ينشأ السؤال المهم حول مصير المصطلح النقدي عندنا وأنا أزعم أن مصطلحاتنا التي تبدو مستعارة قد آلت عندنا إلى تحولات تجعلها مختلفة ، وبالتالي فهي جديدة وتعربنا لها ليس مجرد ترجمة ولكنه تهجين وتوليد يفضي إلى مولد جديد .

إن البنيوية ، والتشريحية والسيميولوجية لدى كتابنا هي ممارسات نظرية وتطبيقية فيها من الثقافة العربية أضعاف مافيها من الفرنسية والانجليزية . وربما أقول - بلا تحفظ - إن فيها من الذاتية الشخصية للمؤلف المعين أكثر مما فيها من العموميات الثقافية والتاريخية الماثورة بالوعي العام .

ولنقف عند أي كاتب يؤلف فكرة بواسطة المصطلحات بدءا من

الرجاني ومصطلح النظم عنده ، وهو مصطلح استعاره من سابقه ، لكنه يختلف فيه عنهم . ولن يكون لنا أن نقول إن (النظم) لدى الباقلاني هو نفسه لدى الرجاني . وهذا الاختلاف لا يبيح لنا أن نقول إن الخبر لم يفهم الأول أو أنه أساء استخدام المصطلح ، ولكننا نقول إن للرجاني منظومته الاصطلاحية التي تنم عنه وعن أطروحاته الفكرية ، وهي أطروحة لا بد من استكشافها عن طريق سبر مصطلحاته من حيث إنها تختلف عن سواه من ناحية ، ومن حيث إن كل واحد منها هو جزء من بناء يخص هذا المؤلف بعينه أكثر مما يحيل إلى الآخرين من ناحية أخرى .

وكذا مصطلح (موت المؤلف) الذي جرى استخدامه في ثقافتنا النقدية الراهنة ، وهو مصطلح لا يمكن الوقوف عليه إلا مقرونا بمفهوم (عصر القاري) ومفهوم (القاري المنتج) بدلا من (القاري المستهلك) وهذه مفهومات يكمل بعضها بعضا ويفسره ويتسبب في قيامه . ولن يحدث القاري المنتج إلا بتراجع سلطان المؤلف على النص أو بالأحرى لا بد من إزاحة الكاتب عن عمله وإحلال القاري محل له لكي يتحرك النص بالقوة الجديدة (الطارئة عليه) ، ومن هنا يمكن للنص أن تتجدد فيه الحياة ويتأسس المرة تلو الأخرى حسب تعاقب القراءات والقراء . وهذه الحركة تحدث بالضرورة من أجل إحداث القراءة المنتجة ، وهذه هي غايتها ، أما موت المؤلف فليس سوى الوسيلة إلى ذلك . ومع هذا فإن مفهوم الموت هنا لا يعني الإزالة والإفناء ، ولكنه يعني تمرحل القراءة موضوعيا من حالة الاستقبال إلى التذوق ثم إلى

التفاعل وإنتاج النص . وهذا يتحقق موضوعياً بغياب المؤلف . فإذا ماتم إنتاج النص بواسطة القاريء - أو لنقل إعادة إنتاجه من باب تلطيف العبارة - فإنه من الممكن حينئذ أن يعود المؤلف إلى النص ضيقاً عليه - كما يقول بارت .

هذا معناه أن الموت هنا هو إرجاء وتعليق للعلاقة بين الكاتب ونصه ، ونحن هنا نفسر الموت حسب المفهوم الديني الذي يعني الانتقال والتحول وليس القضاء النهائي . وهو نقل للنص من دنيا الزوال إلى عالم الخلود .

ولقد كانت علاقتي مع حمزة شحاته قائمة على مثل هذا حيث حضر عندي مرة واحدة في البداية ثم غاب مرارا إلى أن صرت إلى قراءته قراءة مفتوحة حرة ثم أخذت بإحضاره أخيراً لكي يتألف الحضور والغياب عندي بخاتمة تؤلف فيها بين المختلفات وتؤسس الائتلاف من الاختلاف - كما يقول شيخنا عبد القاهر - .

على أن مصطلح (موت المؤلف) ليس من مصطلحات البنيوية ولكنه من مفهومات (النصوصية) . ولقد جاء لدى رولان بارت في مرحلة دخوله إلى النص على أنه عالم حي متحرك ومفتوح والقاريء يدخل مع النص كعاشق له ومتوله به فيغار عليه لذلك حتى من صاحبه . وهذه هي مرحلة (النصوصية) لدى بارت التي صار إليها في أواخر الستينيات (١٩٦٨م تاريخ نشر مقالة موت المؤلف) . وهي مرحلة تتجاوز ميكانيكا النص إلى روحه وتنتقل من المعنى إلى (معنى المعنى) - حسب مصطلحات شيخنا - أو الدلالة الضمنية حسب رولان بارت . وبذا يكون عصر القاريء ويكون النص .



ونأتي على تحليل (قراءة) كمال أبو ديب لقصيدة أبي نواس (يا بنة الشيخ أصبحينا) حيث اتفق معك الاتفاق كله في أنه لم يوظف مصطلح (موت المؤلف) في تلك القراءة المنشورة في كتابه (جدلية الخفاء والتجلي) ، بل إني أزيد وأقول إن أبا ديب لا يأخذ بهذا المبدأ أبداً في تحليلاته كلها . وأرى أنه - عادة وغالبا - يفعل نقيض ذلك حيث إنه يأخذ (باستنطاق المؤلف) واستحضاره داخل الكتابة وتحويله إلى شخص أو شخص نصوصية ناطقة ، لكنها في الغالب تتكلم عن أبي ديب كأقنعة مسرحية تتحدث عن المحلل لا عن نفسها ، ولعل في عناوين كتبه ما يميز مر إلى ذلك : (الرؤى المقنعة) و (جدلية الخفاء والتجلي) حيث لعبة الخفاء أو محاولة التخفي من وراء المؤلف ودفع المؤلف للتعبير عن هاجس المحلل ، وهذا يكون قناعاً يخفي المتحدث الحقيقي ويبرز القول على لسان الشخص النصوصية الموظفة . ولقد لمست أنت كيف وظف المحلل مفهوم (الآخر) وهو (آخر) يشير إلى المحلل أكثر مما يرمز إلى جدلية أبي نواس الشاعر . وأعتقد أن هذا الفهم يشرح لنا كافة كتابات كمال أبو ديب ، وهي كتابات تنم عن الكاتب من خلال توظيف المؤلف لا إماتته ومن خلال تقويله لا تغيبه . وفي هذا إخلال بوحدة الخطاب النصوصي وتشيت لعضويته . وهذا الإخلال أفضى بأبي ديب إلى وصف بعض وحدات القصيدة بأنها وحدات هامشية أي غير شاعرية وغير ضرورية نصوصياً فكأنها ثرثرة زائدة وترهل خطابي ، مع أن فكرة رولان بارت حول تشبيه النص بنص البصل حيث لا لب ولا نواة ولا قلب ، ولكن الأغشية تفضي إلى أغشية مثلها وكلها مهم وضروري ، هذه فكرة تنقض ما ذهب إليه أبو ديب حول هامشية تلك الوحدات .

إن المؤلف عند أبو ديب هو مادة خارجية يتم تصنيعها ثقافيا وظيفيا لتكون قناعا قابلا للتوظيف والاستخدام حسب هوى المحلل . وهذه ممارسة تضاد فكرة موت المؤلف وتلغيها . والخلل في هذه الحالة ليس في المنهج المتبع ولكنه في إرادة المحلل ونيته .

ولن يفوتني أن أشير إلى اتفاقي معك حول ملاحظتك المهمة عن دلالة (الأطلال) لدى أبي نواس من حيث إنها (شاهد على فعل الزمن في الأشياء ، وهي شاهد على محدودية استمرار الحياة في الشيء نفسه . وما ذكر الأطلال . . . إلا من قبيل استقراء الشاهد في المخلوق أو الموجود وليس انعكاسا لموقف الشاعر من الأطلال) .

هذا ملمح مهم أتمنى أن لو أخذت به إلى مداه لتبرز الفعل الشعري المتجلي في الطلل النواصي ، على أنه شهادة استقراء في المائل وتخييل للغائب ، وهذه لمحة تتفق مع مفهوم (النص / البصلة) وتجاري مصطلح (موت المؤلف) وذلك من أجل استنطاق النص مباشرة ومن ثم تفسير إشاراته بناء على مفهوم (تفسير الشعر بالشعر) .

أخيرا أقول إن كلامي هذا ليس سوى قراءة للقراءة وما هو بالملاحظات وأنا أؤمن بأن كل قراءة هي مادة للتشريح مثلما أن النص كذلك . لك مني خالص التحية والمودة ، وليدم تواصلنا . والسلام .

عبدالله محمد الغدامي
الرياض

كتب أخرى للمؤلف

- ١ - الخطيئة والتكفير - من النبوية إلى التشريعية . النادي الأدبي - جدة ١٩٨٥ م .
- ٢ - تشرح النص - مقاربات تشريعية لنصوص شعرية معاصرة . دار الطليعة - بيروت ١٩٨٧ م .
- ٣ - الصوت القديم الجديد - دراسات في موسيقى الشعر الحديث . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ م طبعة أولى . طبعة ثانية : دار الأرض . الرياض ١٩٩١ م .
- ٤ - الموقف من الحداثة ومسائل أخرى - جدة ١٩٨٧ م .
- ٥ - الكتابة ضد الكتابة - دار الآداب ، بيروت ١٩٩١ م .
- ٦ - المشكلة والاختلاف - معد للنشر .

الفهرس

صفحة	
٥	١ - الإهداء
٧	٢ - المقدمة
١٥	٣ - من ثقافة الهزيمة إلى ثقافة الحكمة
٢١	٤ - صناعة النظرية
٣٢	٥ - عابرون في كلام عابر
٣٨	٦ - إما النصر وإما النصر
٤٤	٧ - نص قصيدة درويش (عابرون في كلام عابر)
٤٧	٨ - السلاح الجميل - ١
٥٥	٩ - السلاح الجميل - ٢
٦٢	١٠ - من الفعلي إلى الممكن
٧٠	١١ - النص والأثر
٨٠	١٢ - حينما كانت اللغة تتكلم
٨٥	١٣ - ثقافة الأسئلة

صفحة

٩٤	١٤ - لكي يتكلم النقد بالعربية - النص الجسد
١٠١	١٥ - تشريح النص
١١١	١٦ - تداخل النصوص : النص ابن النص
١٢١	١٧ - تفسير الشعر بالشعر
١٢٨	١٨ - جيش الأسئلة : عزيز ضياء وحوار حول قصيدة القصصبي .
١٥٣	١٩ - نص قصيدة (أغنية في ليل استوائي) للقصصبي
١٥٧	٢٠ - كسر الثنائيات
١٦٣	٢١ - ذاكرة الخصوبة والحب - الترايبية
١٧٢	٢٢ - ديك البحر - احتفالية الإيقاع
١٨٤	٢٣ - موت المؤلف : في جدة موت المؤلف / حياة المؤلف
١٩١	٢٤ - موت المؤلف : الكلمة والسيف
١٩٩	٢٥ - موت المؤلف : رسالة في الاصطلاح

من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بجدة

- ١- قم الأولب «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٢- الساحر العظيم «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٣- عكاظ الجديدة «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٤- الشاطئ والسراة «شعر» للأستاذ محمود عارف - ضم إلى مجموعة الشاعر الشعرية.
- ٥- من شعر الثورة الفلسطينية «شعر» للأستاذ أحمد يوسف الريماوى - (نفد).

- ٦- أنين وحنين «شعر شعبي» للأستاذ منصور بن سلطان- (طبع).
- ٧- محرر الرقيق «سليمان بن عبدالمك دراسة للأستاذ محمد حسن عواد- (نفذ).
- ٨- من وحى الرسالة الخالدة «إسلاميات» محمد على قدس- (طبع).
- ٩- المنتجع الفسيح «آداب وعلوم» للأستاذ محمد حسن عواد- (نفذ).
- ١٠- طبيب العائلة- د. حسن يوسف نصيف- (نفذ).
- ١١- مذكرات طالب (ط ٣) د. حسن يوسف نصيف- (نفذ).
- ١٢- شمعة على الدرب «نثر» للدكتور عارف قياسية- (طبع).
- ١٣- أطياف العذارى- «شعر» للشاعر الأستاذ مطلق الذيابي- (طبع).

- ١٤- كبوات اليراع «تصويبات لغوية» للشيخ
أبى تراب الظاهرى - (طبع).
- ١٥- عندما يورق الصخر «شعر» - للأستاذ ياسر
فتوى - (طبع).
- ١٦- ورد وشوك «مطالعات» للأستاذ حسن عبدالله
القرشى - (طبع).
- ١٧- فى معترك الحياة «مجموعة آراء» - للأستاذ
عبدالفتاح أبومدين - (طبع).
- ١٨- المجموعة الشعرية للأستاذ محمد إبراهيم
جدع - (طبعت).
- ١٩- الوجيز فى المبادئ السياسية فى الإسلام
«نظريات إسلامية» للأستاذ سعدي أبوجيب -
(طبع).
- ٢٠- أوهام الكتاب «تعقبات مختلفة» - للشيخ
أبى تراب الظاهرى - (طبع).

- ٢١- على أحمد باكثير حياته وشعره الوطنى
والإسلامى - دراسة للدكتور أحمد السوعى -
(طبع).
- ٢٢- نغم وألم «شعر» - الشريف منصور بن
سلطان - (طبع).
- ٢٣- الكلب والحضارة «قصص من البيئة» للأستاذ
عاشق الهذال - (طبع).
- ٢٤- شواهد القرآن - للشيخ أبى تراب الظاهرى -
(طبع).
- ٢٥- التشكيل الصوتى فى اللغة العربية - للدكتور
سلمان العانى - (طبع).
- ٢٦- أريد عمراً رائعاً - «شعر» - للشاعر عبد الله
جبر - (طبع).
- ٢٧- ترانيم الليل «المجموعة الشعرية الكاملة» للشاعر
الأستاذ محمود عارف - (طبع).

- ٢٨- حروف على أفق الأصيل - «شعر» للأستاذ
حمد الزيد - (طبع).
- ٢٩- من أدب جنوب الجزيرة - «دراسة» -
للأستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلي -
(طبع).
- ٣٠- غناء الشادي - «شعر» - للشاعر الأستاذ
مطلق الذيابي - (طبع).
- ٣١- الذيابي تاريخ وذكريات إعداد الشريف منصور
بن سلطان - (طبع).
- ٣٢- محاضرات النادي «القسم الأول» - (طبع).
- ٣٣- محاضرات النادي «القسم الثاني» - (طبع).
- ٣٤- محاضرات النادي «القسم الثالث» - (طبع).
- ٣٥- المتنبي شاعر مكارم الأخلاق للأستاذ أحمد بن
محمد الشامي - (طبع).
- ٣٦- هموم صغيرة - «أقاصيص» للأستاذ محمد على
قدس - (طبع).

- ٣٧- أمواج وأنباج «دراسة أدبية» — للأستاذ
عبد الفتاح أبو مدين — طبع (الطبعة الثانية) .
- ٣٨- الخطيئة والتكفير — من البنيوية إلى
التشريحية — للأستاذ الدكتور عبد الله الغدامي
(طبع) .
- ٣٩- التجديد في الشعر الحديث — «دراسة أدبية»
للدكتور يوسف عز الدين — (طبع) .
- ٤٠- التراث الثقافي للأجناس البشرية في
أفريقيا — «دراسة علمية» — للدكتور عبد العليم
عبد الرحمن جعفر — (طبع) .
- ٤١- فلسفة المجاز — «دراسة لغوية» — للدكتور لطفى
عبد البديع — (طبع) .
- ٤٢- بكيك نواره الفال، سجيكت جسد الوجد —
«شعر» عبد الله عبد الرحمن الزيد — (طبع) .
- ٤٣- مصادر الأدب النسائي في العالم العربي
الحديث — للدكتور جوزيف زيدان — (طبع) .

- ٤٤- أحبك رغم أحزاني- «شعر»- الدكتور فوزى عيسى- (طبع).
- ٤٥- أبوتمام- «دراسة»- للأستاذ سعيد السريحي- (طبع).
- ٤٦- عبقرية العربية- «دراسة لغوية»- للدكتور لطفى عبد البديع- (طبع).
- ٤٧- أحاديث- الدكتور محمد سعيد العوضى- (طبع) طبعة ثانية.
- ٤٨- اغتيال القمر الفلسطيني للأستاذ / أحمد مفلح- (طبع).
- ٤٩- التضاريس- «شعر»- للأستاذ محمد الشبتي- (طبع).
- ٥٠- ٤ صفر- للأستاذة رجاء عالم- (طبع).
- ٥١- علم اجتماع اللغة- «ترجمة عن الانجليزية»- الدكتور أبوبكر باقادر- (طبع).

- ٥٢- أفضية وقضاة فى الإسلام - للدكتور/ كمال
محمد عيسى - (طبع).
- ٥٣- علم الأسلوب - للدكتور صلاح فضل -
(طبع).
- ٥٤- دليل كتاب النادى - (طبع).
- ٥٥- ديوان دمر - «شعر» للأستاذ على دمر -
(طبع).
- ٥٦- أحبك.. ولكن - «مجموعة قصص قصيرة» -
للأستاذة مريم محمد القامدى - (طبع).
- ٥٧- مدخل إلى الشعر العربى الحديث - للدكتور
نذير العظمة - (طبع).
- ٥٨- بقايا غير ورماد «شعر» للشاعر محمد هاشم
رشيد - (طبع).
- ٥٩- محاضرات النادى - الجزء الرابع - (طبع).
- ٦٠- محاضرات النادى - الجزء الخامس - (طبع).

- ٦١- محاضرات النادى - الجزء السادس - (طبع).
- ٦٢- محاضرات النادى - الجزء السابع - (طبع).
- ٦٣- اللغة بين البلاغة والأسلوبية - للدكتور مصطفى ناصف - (طبع).
- ٦٤- جزر فرسان - العقيد متقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربى - (طبع).
- ٦٥- شواهد القرآن - «الجزء الثانى» - للشيخ أبى تراب الظاهرى - (طبع).
- ٦٦- الفكر السيכולوجى المعاصر - للدكتور حمد المرزوقى - (طبع).
- ٦٧- مُنَاقَب هالى - للدكتور محمد عبده يمانى - (طبع).
- ٦٨- مورفولوجيا الحكاية الخرافية - الدكتور أبوبكر باقادر - (طبع).
- ٦٩- طه حسين والتراث - الدكتور مصطفى ناصف - (طبع).

- ٧٠- ذاكرة لأسئلة النوارس - «شعر» عبدالله
الحشرى - (طبع).
- ٧١- قراءة جديدة لتراثنا النقدي - «المجلد
الأول» - والمجلد الآخر - (طبع).
- ٧٢- الوحوش - للأصمعي - تحقيق الأستاذ أمين
محمد علي ميدان - (طبع).
- ٧٣- في مفهوم الأدب - ترجمة الدكتور منذر
عياشي - (طبع).
- ٧٤- محاضرات النادي - الجزء الثامن - (طبع).
- ٧٥- في نظرية الأدب عند العرب - الدكتور
حمادى صمود - (طبع).
- ٧٦- محاضرات النادي - الجزء التاسع - طبع .
- ٧٧- شعر حسين سرحان - دراسة نقدية أعدها
الباحث أحمد عبدالله صالح المحسن - (طبع).

- ٧٨- فى اتص الأدبى دراسة أسلوبية إحصائية -
للدكتور سعد مصلوح (طبع).
- ٧٩- حكم الله فى الصيد وطعام أهل الكتاب -
للأستاذ مختار أحمد العيساوى - (طبع) .
- ٨٠- محاضرات النادى - المجلد العاشر - (طبع) .
- ٨١- ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي - تحقيق
الأستاذ أيمن محمد على ميدان - (تحت الطبع) .
- ٨٢- خصام مع النقاد - د. مصطفى ناصف (طبع) .
- ٨٣- منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة
والأخلاق - د. أحمد عمر هاشم (تحت
الطبع) .
- ٨٤ - الحركة التجارية فى ميناء جدة فى القرن الثالث
عشر ، للدكتور مبارك المبدى - (تحت الطبع)

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية
مسجلة بدولة الكويت
وجمهورية مصر العربية
وتهدف إلى نشر ما هو
جدير بالنشر من روائع
التراث العربي والثقافة
العربية المعاصرة والتجارب
الابداعية للشباب العربي
من المحيط إلى الخليج وكذا
ترجمة ونشر روائع الثقافات
الأخرى حتى تكون في
مناول أبناء الأمة فهذه
الدار هي حلقة وصل بين
التراث والمعاصرة وبين
كبار المبدعين وشبابهم
وهي نافذة للعرب على
العالم ونافذة للعالم على
الأمة العربية وتلتزم الدار
فيما تنشره بمعايير تضعها
هيئة مستقلة من كبار
المفكرين العرب في
مجالات الإبداع المختلفة .

هيئة المستشارين :

(مدير التحرير)

أ. إبراهيم فريش

د. جابر عصفور

أ. جمال الغيطاني

د. حسن الابراهيم

(المستشار الفني)

أ. حلمى التونى

د. خلدون النقيب

(العضو المنتدب)

د. سعد الدين إبراهيم

د. سمير سرحان

د. عدنان شهاب الدين

(المستشار القانونى)

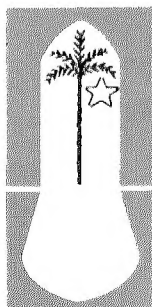
د. محمد نور فرحات

أ. يوسف القعيد



ثقافة الاسئلة

هذا الكتاب استجابة لأسئلة تتوارد على المشروع الثقافي المنهجي الذي ينتمى إليه الكاتب . ويقوم هذا المشروع على النقد اللغوي أو « النصوصية » ، معتمداً على ما يعرف بنقد ما بعد البنيوية الذي يأخذ من البنيوية والسميولوجية والتفكيكية « التشريحية » منظومة من المفهومات النظرية والإجرائية تدخل كلها تحت مظلة الوعي اللغوي بشروط النص وتجلياته التكوينية والدلالية . وتتخذ الاستجابة - في هذا الكتاب - شكل مقالات هي شروح مضافة إلى كتاب « الخطيئة والتكفير » وما جاء بعده ، خاصة « تشريح النص » و « الكتابة ضد الكتابة » . وكلها تنطلق من الإيمان بذلك المبدأ الذي أكدّه أمبرتو إيكو حين قال : « لقد تقبل الانثروبولوجيون أنواعاً من الثقافات ، حيث يأكل البشر الكلاب والقرود والضفادع والثعابين ، ولذا يفترض ألا يستغرب وجود بلاد يسهم الاكاديميون فيها بالكتابة الصحفية » .



دار سعاد الصباح